من رحم الأرض

الجزء السادس

العبرانيون والإسرائيليون

ممالك وشعوب بلاد الشام القديمة

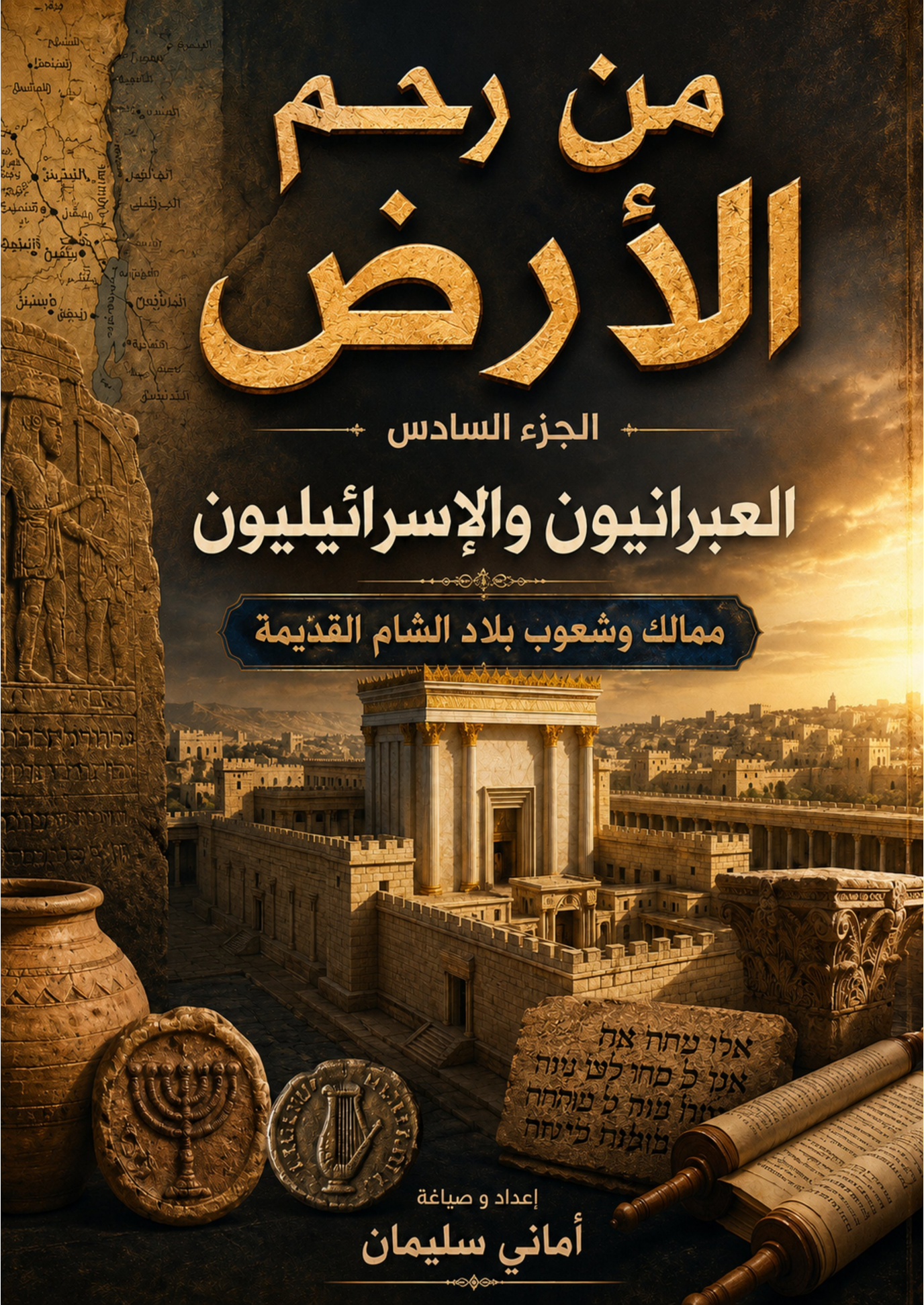

إعداد و صياغة

أماني سليمان

من رحم الأرض

الجزء السادس

ممالك و شعوب بلاد الشام القديمة

العبرانيون و الأسرائيليون

إعداد و صياغة

أماني سليمان

من قلب بلاد الشام
تبدأ حكاية العبرانيين والإسرائيليين
حكاية شعبٍ تشكلت هويته
بين الأرض والمعتقد والمملكة

مقدمة

من بين المجتمعات التي ظهرت في بلاد الشام خلال العصر الحديدي، يحتل العبرانيون والإسرائيليون مكانة خاصة في تاريخ المنطقة، ليس فقط بسبب الممالك التي نشأت لاحقًا، وإنما أيضًا بسبب التأثير الكبير الذي تركته تقاليدهم الدينية والسياسية والثقافية في تاريخ الشرق الأدنى والعالم.

لكن الحديث عنهم يحتاج إلى قدر كبير من الدقة؛ لأن اسم العبرانيين لا يطابق دائمًا اسم الإسرائيليين، كما أن «إسرائيل» نفسها تغير معناها عبر المراحل التاريخية.

فنحن لا نتحدث عن شعب ظهر فجأة في لحظة واحدة، ولا عن مملكة قامت مباشرة بمجرد وصول مجموعة إلى بلاد الشام.

بل أمامنا عملية تاريخية طويلة تشكلت خلالها جماعات سكانية في المناطق الجبلية والداخلية من بلاد الشام، ثم ظهرت بينها هوية سياسية ودينية أخذت تتبلور تدريجيًا.

ومن هذه البيئة ظهرت لاحقًا مملكة إسرائيل في الشمال ومملكة يهوذا في الجنوب، ودخلتا في صراعات وتحالفات مع القوى المحيطة بهما، من الفلستيين والآراميين إلى آشور ومصر وبابل لكن قبل أن نصل إلى الملوك والممالك، علينا أن نبدأ من

السؤال الأصعب من هم العبرانيون؟ ومن هم الإسرائيليون؟ وكيف بدأت قصتهم في بلاد الشام؟

من العبرانيين إلى الإسرائيليين

يبدأ تاريخ العبرانيين والإسرائيليين في منطقة كانت، قبل ظهور الممالك الإسرائيلية بوقت طويل، جزءًا من عالم شامي واسع تتداخل فيه المدن والقرى والمجموعات السكانية.

ولهذا فإن البحث عن لحظة واحدة يمكن أن نقول فيها هنا ظهر الإسرائيليون، لن يعطينا صورة دقيقة.

فالتاريخ الأثري يشير إلى عملية تدريجية حدثت خلال أواخر العصر البرونزي وبدايات العصر الحديدي، عندما ظهرت تجمعات سكانية جديدة في مناطق المرتفعات الداخلية من بلاد الشام كانت هذه المناطق أقل ازدهارًا من المدن الساحلية الكبرى، لكنها لم تكن معزولة عن العالم المحيط بها.

وكان سكانها يمارسون الزراعة وتربية الحيوانات، ويعيشون في قرى صغيرة، ويتعاملون مع المدن والمناطق المجاورة.

ومن هذه البيئة الريفية والجبلية ستظهر لاحقًا مراكز سياسية أكثر تنظيمًا.

يظهر اسم العبرانيين في الروايات القديمة في سياقات مختلفة، وأصبح لاحقًا مرتبطًا بالشعب الذي تروي النصوص التوراتية

قصته لكن من الناحية التاريخية، لا يمكن أن نفترض أن كلمة عبري كانت دائمًا اسمًا قوميًّا بالمعنى الذي نفهمه اليوم فالكلمات القديمة قد تتغير دلالاتها بحسب الزمن والسياق.

كما أن هناك نقاشًا بين الباحثين حول العلاقة بين مصطلح العبرانيين وبين مصطلحات أقدم ظهرت في وثائق الشرق الأدنى، مثل الخابيرو/العبيرو.

وقد يكون هناك ارتباط لغوي أو اجتماعي بين هذه المصطلحات، لكن لا توجد قاعدة تسمح بالقول إن كل من أُطلق عليهم اسم خابيرو كانوا إسرائيليين وهذه نقطة مهمة جدًا.

فالخابيرو ظهروا في وثائق من مناطق مختلفة ومن فترات متعددة، ولم يكونوا بالضرورة شعبًا واحدًا.

لذلك يجب ألا نحول التشابه في الأسماء إلى إثبات تاريخي مباشر.

أما اسم إسرائيل، فلدينا له دليل أثري بالغ الأهمية ففي نصب الملك المصري مرنبتاح، الذي يعود إلى أواخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد، يظهر اسم «إسرائيل» ضمن قائمة بالشعوب والمجموعات الموجودة في بلاد كنعان.

وتكمن أهمية هذا النص في أنه أقدم ذكر معروف حتى الآن لاسم إسرائيل خارج النصوص التوراتية.

والأهم أن الطريقة التي كُتب بها الاسم في النقش تشير إلى أنه كان يُنظر إليه باعتباره مجموعة سكانية، وليس مدينة أو مملكة وهذا يعطينا نقطة زمنية مهمة جدًا في أواخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد، كان هناك مجتمع أو مجموعة تحمل اسم إسرائيل موجودة في بلاد كنعان لكن النقش لا يخبرنا كيف نشأت هذه المجموعة ولا يخبرنا تفاصيل دينها ولا يخبرنا عن ملوكها ولا يحدد لنا عاصمتها وهنا تبدأ رحلة البحث الحقيقية.

من أين جاء الإسرائيليون؟

ظهرت عدة تفسيرات عبر تاريخ البحث كان أحد الاتجاهات القديمة يعتمد بدرجة كبيرة على الرواية التوراتية، التي تقدم قصة خروج بني إسرائيل من مصر ثم دخولهم إلى أرض كنعان لكن علم الآثار أدى إلى صورة أكثر تعقيدًا فالأدلة لا تشير إلى أن كل السكان الذين أصبحوا لاحقًا إسرائيليين كانوا مجموعة واحدة وصلت دفعة واحدة إلى البلاد بل تظهر في المرتفعات خلال بدايات العصر الحديدي زيادة واضحة في عدد القرى والمستوطنات وقد رأى كثير من الباحثين في هذه الظاهرة دليلًا على تشكل مجتمع جديد، أو على الأقل إعادة تنظيم سكاني واجتماعي واسع.

القرى في المرتفعات

كانت القرى الجديدة صغيرة في كثير من الأحيان بيوتها كانت مبنية وفق أنماط محلية، وكان اقتصادها يعتمد بدرجة كبيرة على الزراعة وتربية الحيوانات.

وزُرعت الحبوب والزيتون والعنب، واستُخدمت المدرجات الزراعية في المناطق الجبلية.

وكانت هذه المجتمعات أقل ارتباطًا بالنمط الحضري الكبير الذي ميز بعض مدن كنعان وهذا لا يعني أنها كانت منفصلة عن الكنعانيين بل على العكس، تظهر بينها وبين الثقافة الكنعانية استمرارية واضحة في كثير من جوانب الحياة.

وهنا تظهر واحدة من أهم النتائج التي وصل إليها علم الآثار الإسرائيليون الأوائل لم يظهروا في فراغ ثقافي.

لقد نشأوا داخل البيئة الكنعانية نفسها، وتأثروا بها، ثم أخذوا يطورون هوية سياسية ودينية واجتماعية خاصة بهم.

هل كان الإسرائيليون كنعانيين؟

السؤال يبدو غريبًا، لكنه مهم جدًا إذا نظرنا إلى الثقافة المادية، سنجد قدرًا كبيرًا من الاستمرارية بين سكان المرتفعات وبين

سكان كنعان فالعمارة والزراعة والأدوات والفخار لا تظهر فجأة وكأن شعبًا أجنبيًا وصل إلى البلاد وغيّر كل شيء.

ولهذا يرى كثير من الباحثين أن جانبًا كبيرًا من السكان الذين أصبحوا إسرائيليين نشأ من داخل السكان المحليين في كنعان، مع احتمال وجود جماعات أخرى اندمجت معهم.

وهذا لا يعني أن الروايات عن الهجرة أو الخروج من مصر لا تحمل أي قيمة بل يعني أن تكوّن إسرائيل التاريخية كان على الأرجح عملية أطول وأكثر تعقيدًا من رواية هجرة جماعية بسيطة.

الدين في المراحل الأولى

تقدم الروايات التوراتية صورة متطورة جدًا عن عبادة يهوه والإيمان بإله واحد.

لكن علم الآثار يشير إلى أن الدين الإسرائيلي في مراحله المبكرة كان أكثر تعقيدًا فلم يتحول المجتمع من تعدد الآلهة إلى التوحيد الكامل في لحظة واحدة بل يبدو أن عبادة يهوه تطورت داخل بيئة دينية كنعانية كانت تعرف آلهة متعددة.

وتظهر في المصادر القديمة إشارات إلى أسماء وممارسات دينية تعكس هذا العالم المشترك وهذا يعني أن تاريخ الدين الإسرائيلي نفسه كان عملية تطور طويلة.

يهوه والهوية الجديدة

مع مرور الوقت أصبحت عبادة يهوه عنصرًا أساسيًا في الهوية الإسرائيلية وأخذ الدين يلعب دورًا أكبر في ربط الجماعات المتفرقة ببعضها، خصوصًا مع ظهور السلطة الملكية والمؤسسات المركزية.

ثم تطورت هذه التقاليد عبر القرون، وصولًا إلى أشكال أكثر وضوحًا من التوحيد والهوية الدينية.

لكن من المهم ألا نضع المراحل المتأخرة على بدايات التاريخ.

فما نعرفه عن اليهودية في مراحلها اللاحقة لا يمكن إسقاطه كاملًا على القرى الإسرائيلية الأولى.

من القرى إلى الممالك

ومع نمو السكان وازدياد الموارد ظهرت الحاجة إلى تنظيم سياسي أكثر قوة وبدأت بعض المراكز تكتسب أهمية أكبر وتزايدت العلاقات بين القرى والمناطق وأصبح الدفاع عن الأرض والموارد والطرق التجارية يحتاج إلى قيادة عسكرية وسياسية وفي هذا السياق ظهرت فكرة الملكية.

وتروي الروايات القديمة أن شاول كان أول ملوك إسرائيل، ثم جاء بعده داود، ثم سليمان.

لكن حجم هذه المملكة وطبيعة السلطة التي امتلكها هؤلاء الملوك في القرن العاشر قبل الميلاد ما زالا موضوعًا للنقاش العلمي.

فبعض الباحثين يرى أن المملكة الموحدة كانت كيانًا سياسيًا قويًا نسبيًا، بينما يرى آخرون أن السلطة في تلك المرحلة كانت محدودة أكثر مما تصفه الروايات اللاحقة.

ومهما كان حجمها الحقيقي، فإن هذه المرحلة تمثل نقطة مهمة في انتقال المجتمع من تجمعات محلية إلى كيانات سياسية أكثر تنظيمًا.

الفلستيون مرة أخرى

وهنا تعود إلينا قصة الفلستيين فالممالك الإسرائيلية الناشئة لم تكن تتطور وحدها كانت محاطة بقوى ومجتمعات أخرى، وكان الفلستيون من أبرز خصومها في الجنوب الغربي.

وهذا الصراع ساهم في تشكيل السياسة الإسرائيلية المبكرة.

فالتهديد العسكري يمكن أن يدفع المجتمعات الصغيرة إلى الاتحاد، ويزيد من قوة القيادة المركزية، ويجعل وجود الجيش أكثر أهمية ومن هنا يمكن فهم جزء من الظروف التي رافقت ظهور الملكية.

المملكة الموحدة

بحسب الرواية التقليدية، وصلت المملكة إلى ذروة قوتها في عهد النبي داود والنبي سليمان وتصف الروايات مملكة واسعة وعاصمة في القدس ومشروعات بناء كبيرة، إضافة إلى علاقات تجارية مع مناطق بعيدة لكن الآثار لا تسمح لنا بإثبات كل تفاصيل هذه الصورة.

فالقدس في القرن العاشر قبل الميلاد كانت موجودة بالفعل، لكن حجمها وطبيعة السلطة التي حكمتها ما زالا موضع نقاش.

كما أن بعض المنشآت التي نُسبت قديمًا إلى سليمان أعيد تأريخها أو تفسيرها في الدراسات الحديثة.

ولهذا سنعود إلى هذه المرحلة بتفصيل أكبر عندما نصل إلى شاول وداود وسليمان.

الانقسام

بعد سليمان، تروي الرواية أن المملكة انقسمت إلى كيانين

مملكة إسرائيل في الشمال

ومملكة يهوذا في الجنوب.

ومن هنا تبدأ مرحلة جديدة تمامًا.

فبدل وجود مملكة واحدة، أصبح هناك كيانان سياسيان يشتركان في كثير من عناصر الثقافة والدين، لكنهما يملكان مراكز سياسية ومصالح مختلفة.

كانت عاصمة إسرائيل في النهاية السامرة، وهي مدينة قديمة موقعها الأثري قرب سبسطية الحالية شمال غرب نابلس بينما أصبحت القدس مركز مملكة يهوذا.

ومن هذه اللحظة سيصبح تاريخ المنطقتين مختلفًا بصورة متزايدة.

لكن قبل أن نصل إلى الانقسام، نحتاج أن نتوقف عند السؤال الذي لا يزال يحيط بالبدايات كلها

هل كان خروج بني إسرائيل من مصر حدثًا تاريخيًا واسع النطاق، أم أن وراء الرواية تاريخًا أكثر تعقيدًا من الهجرة والاندماج وتكوين الهوية؟

وهنا ندخل إلى واحدة من أكثر القضايا إثارة للجدل في تاريخ إسرائيل القديم.

الخروج من مصر ودخول كنعان

تُعد قصة الخروج من مصر واحدة من أشهر القصص في التاريخ القديم بحسب الرواية التوراتية، عاش بنو إسرائيل في مصر، ثم خرجوا منها بقيادة النبي موسى، وعبروا الصحراء، وبعد سنوات من الترحال وصلوا إلى أرض كنعان.

وتروي القصة أحداثًا كبرى فرعون، والعبودية، والضربات العشر، وعبور البحر، والتيه في الصحراء، ثم دخول الأرض.

بحسب سفر الخروج، عندما رفض فرعون السماح لبني إسرائيل بالخروج، تروي القصة أن الله أرسل على مصر عشر ضربات/آيات متتالية:

١- تحوّل ماء النيل إلى دم.
٢- انتشار الضفادع.
٣- انتشار القمل أو الحشرات.
٤- انتشار الذباب أو الحشرات الطائرة.
٥- نفوق المواشي.
٦- ظهور القروح والدمامل.
٧- نزول البَرَد.
٨- انتشار الجراد.
٩- حلول الظلام.

١٠- موت الأبكار، وهي الضربة الأخيرة التي دفعت فرعون إلى السماح لهم بالخروج.

جاءت هذه الضربة الأخيرة ليلًا، وقيل إن بكر فرعون نفسه مات، وكذلك أبكار المصريين. أما بنو إسرائيل فكانت الرواية تقول إنهم نجوا من هذه الضربة باتباعهم التعليمات التي أُعطيت لهم، ومن هنا ارتبطت القصة لاحقًا بعيد الفصح.

أرض كنعان

عندما نتحدث عن دخول بني إسرائيل إلى كنعان، يجب أن نتذكر أن كنعان لم تكن دولة واحدة كانت منطقة واسعة تضم مدنًا وممالك ومجتمعات مختلفة وكانت السيطرة المصرية قد تركت أثرًا سياسيًا كبيرًا فيها خلال العصر البرونزي المتأخر وكانت المدن الكنعانية مرتبطة بالنظام المصري بدرجات مختلفة، قبل أن تتغير الأوضاع مع نهاية العصر البرونزي وهذا التوقيت مهم جدًا فخلال الفترة نفسها تقريبًا التي تظهر فيها تحولات كبيرة في شرق المتوسط، بدأت المدن القديمة تضعف، وظهرت تجمعات جديدة في المرتفعات.

رواية الفتح

تقدم الرواية التوراتية صورة لحملة عسكرية قادها يشوع، مع سقوط مدن مثل أريحا وعاي وحاصور.

لكن عندما قارن علماء الآثار هذه الروايات بالمواقع نفسها، ظهرت مشكلة واضحة فليست كل المدن التي تذكرها الرواية تعرضت للدمار في الوقت نفسه الذي يُفترض أن حدث فيه الفتح بل إن بعض المواقع لا تتطابق طبقاتها الأثرية مع التسلسل الذي تقدمه الرواية ولهذا لم يعد من الممكن التعامل مع قصة الفتح باعتبارها وصفًا عسكريًا دقيقًا لكل ما حدث في كنعان.

أريحا

تُعد أريحا أشهر مثال على ذلك فقد كشفت الحفريات عن تاريخ طويل جدًا للموقع، لكن تحديد طبقة الدمار التي يمكن ربطها بدخول بني إسرائيل ظل موضع خلاف كبير.

وقد توصل الباحثون إلى تأريخات مختلفة للطبقات الأثرية، بينما لا يتفق هذا كله بسهولة مع التسلسل الزمني التقليدي للقصة.

ولهذا أصبحت أريحا مثالًا كلاسيكيًا على الفرق بين الرواية الدينية وإعادة البناء الأثري.

حاصور

أما حاصور فصورتها أكثر تعقيدًا كانت حاصور واحدة من أهم مراكز كنعان خلال العصر البرونزي، وتعرضت بالفعل لدمار في نهاية العصر البرونزي.

لكن تحديد الجهة التي دمرتها وتاريخ الحدث بدقة، وربطه مباشرة بالرواية التوراتية، يحتاج إلى الحذر.

فوجود مدينة كنعانية مدمرة لا يعني تلقائيًا أن الجيش الذي دمرها كان جيش يشوع.

إذن كيف ظهرت إسرائيل؟

هنا تصبح الأدلة الأثرية أكثر إثارة.

فبدل العثور على دليل واضح على غزو عسكري شامل، نلاحظ خلال بدايات العصر الحديدي ظهور مئات المستوطنات الصغيرة في المرتفعات وتتميز هذه التجمعات ببعض السمات المشتركة قرى صغيرة ومنازل ذات أنماط محلية واعتماد على الزراعة وتربية الأغنام والماعز واستخدام المدرجات الزراعية في المناطق الجبلية وغياب نسبي للخنازير في بقايا الحيوانات مقارنة ببعض المناطق الساحلية.

هذه الظاهرة لا تثبت وحدها أن سكان هذه القرى كانوا «إسرائيليين».

لكنها تصبح مهمة جدًا عندما نقارنها بظهور اسم إسرائيل في نقش مرنبتاح وبالتطور السياسي الذي حدث لاحقًا.

مجتمع جديد أم سكان قدامى؟

أحد التفسيرات الأكثر قبولًا في الدراسات الحديثة هو أن جزءًا كبيرًا من الإسرائيليين الأوائل نشأ من السكان المحليين في كنعان فقد حدثت تحولات اجتماعية واقتصادية وسياسية داخل المجتمع الكنعاني نفسه وانتقلت مجموعات من السكان إلى المناطق المرتفعة وتشكلت قرى جديدة ثم بدأت هذه الجماعات تطور هوية مميزة وقد تكون انضمت إليها مجموعات أخرى جاءت من خارج المنطقة وهكذا يصبح ظهور إسرائيل نتيجة عملية اجتماعية طويلة، وليس بالضرورة نتيجة غزو واحد.

ماذا عن مصر؟

لا تزال مصر حاضرة في هذه الصورة فبعض الجماعات التي دخلت في تكوين إسرائيل ربما كانت لها ذكريات أو صلات بمصر وقد يكون خروج مجموعات صغيرة من مصر، ثم اندماجها في سكان كنعان، جزءًا من الخلفية التاريخية التي ساهمت في تشكيل رواية الخروج.

لكن هذا يبقى احتمالًا تاريخيًا، وليس حقيقة مثبتة.

ولهذا يجب أن نبقي الفرق واضحًا بين ما نعرفه وما نرجحه وما ترويه التقاليد.

من كنعانيين إلى إسرائيليين

ربما كانت العملية أقرب إلى التحول التدريجي سكان يعيشون في بيئة كنعانية ينتقل جزء منهم إلى المرتفعات تنشأ قرى جديدة تتطور عادات اجتماعية مميزة تظهر هوية دينية أكثر ارتباطًا بيهوه تنشأ تحالفات سياسية ثم يظهر كيان يحمل اسم إسرائيل وبمرور الوقت يصبح هذا الكيان دولة ومملكة.

وهكذا فإن ظهور إسرائيل كان عملية تشكل هوية، وليس مجرد وصول جيش إلى أرض جديدة.

بداية مرحلة جديدة

مع نهاية العصر البرونزي وبداية العصر الحديدي، تغير وجه بلاد الشام ضعفت مدن كنعانية تراجع النفوذ المصري ظهر الفلستيون على الساحل نشأت قرى إسرائيلية في المرتفعات وتشكلت ممالك ومراكز سياسية جديدة كان العالم القديم كله يدخل مرحلة مختلفة.

وفي هذا العالم ستظهر تدريجيًا أولى الممالك الإسرائيلية.

المجتمع الإسرائيلي الأول والحياة اليومية

البيت

من أشهر الأنماط المعمارية المرتبطة بالمجتمعات الإسرائيلية المبكرة ما يعرف باسم البيت ذي الأعمدة الأربعة كان هذا النوع من البيوت يتكون عادة من مساحة رئيسية تحيط بها أعمدة تساعد على تقسيم المكان أو دعم الطابق العلوي والسقف ولا ينبغي اعتبار هذا التصميم اختراعًا إسرائيليًا خالصًا؛ فقد ظهرت أنماط مشابهة في بيئات بلاد الشام.

لكن انتشاره في مواقع مرتبطة بالمجتمعات الإسرائيلية جعله عنصرًا مهمًا في دراسة الحياة اليومية وكان البيت أكثر من مكان للنوم.

ففي المجتمعات الزراعية كانت الأسرة تعيش وتخزن جزءًا من إنتاجها وتعمل داخله وقد توجد فيه مناطق للطهي، وأخرى للتخزين، ومساحات للعمل.

الأسرة والمجتمع

كانت الأسرة الوحدة الأساسية في المجتمع وكانت القرية تتكون من مجموعة من الأسر التي ترتبط ببعضها بعلاقات القرابة والجوار والعمل.

وفي مجتمع يعتمد على الزراعة، كانت مشاركة أفراد الأسرة في العمل ضرورية فزراعة الحقول وحصاد الحبوب والعناية بالزيتون والعنب وتربية الحيوانات كلها تحتاج إلى جهد مستمر ولذلك لم تكن الحدود بين العمل والحياة المنزلية واضحة كما هي في المجتمعات الحديثة.

الزراعة

اعتمد الاقتصاد على مجموعة متنوعة من المحاصيل كانت الحبوب أساسية، خصوصًا القمح والشعير وكان الزيتون والعنب مهمين أيضًا، سواء للاستهلاك أو لإنتاج الزيت والنبيذ وفي المناطق الجبلية، ساعدت المدرجات الزراعية على استغلال المنحدرات والاحتفاظ بالتربة والمياه وهذه المدرجات لم تكن مجرد منشآت زراعية إنها دليل على قدرة المجتمعات المحلية على تنظيم العمل الجماعي وتعديل البيئة لتناسب احتياجاتها.

كان الزيتون من أهم الأشجار في اقتصاد بلاد الشام.

فالزيت يمكن استخدامه في الطعام والإضاءة والعناية بالجسم، ويمكن تخزينه ونقله ولهذا أصبح إنتاج زيت الزيتون مصدرًا مهمًا للثروة، خصوصًا عندما بدأت المراكز السياسية بالنمو وتكشف المعاصر الحجرية المكتشفة في مواقع مختلفة عن حجم أهمية هذه الصناعة.

كانت الأغنام والماعز من الحيوانات الأساسية وفرت اللحوم والحليب والصوف والجلود، كما كانت الحيوانات جزءًا من الاقتصاد الزراعي أما الخنازير، فتظهر بقاياها بنسب متفاوتة بين المواقع.

ويلاحظ الباحثون أن وجودها كان أقل في كثير من المستوطنات المرتبطة بالمجتمعات الإسرائيلية المبكرة مقارنة ببعض المناطق الساحلية الفلستية.

وقد أصبح هذا الفرق أحد العناصر التي يستخدمها علماء الآثار عند دراسة الهوية الغذائية في المنطقة لكن يجب الحذر من اعتباره قاعدة مطلقة فغياب عظام الخنازير لا يثبت وحده أن سكان الموقع كانوا إسرائيليين.

وكان اللحم أقل حضورًا في الحياة اليومية من الحبوب والزراعة النباتية، لأن تربية الحيوانات كانت توفر منتجات أخرى مهمة، ولأن ذبح الحيوان يمثل موردًا اقتصاديًا لا يمكن استهلاكه بلا حساب وهكذا تعكس بقايا الطعام طبيعة مجتمع زراعي يعتمد على ما تنتجه الأرض والحيوانات.

أما توفير الماء كان تحديًا دائمًا ولذلك اعتمد السكان على الينابيع والآبار والمنشآت التي تساعد على جمع المياه وتخزينها ومع نمو القرى والمدن أصبحت إدارة المياه أكثر

أهمية ثم ستصبح أنظمة المياه عنصرًا استراتيجيًا في المدن المحصنة، خصوصًا عندما تتعرض للحصار.

الحرف

لم تكن المجتمعات الزراعية تعتمد على الزراعة وحدها كان هناك فخار، ونسيج، وأعمال معدنية، وصناعة أدوات حجرية وخشبية وقد تتم بعض هذه الأعمال داخل الأسرة، بينما يتخصص بعض الأشخاص في حرف معينة مع نمو المجتمع ومع ظهور المدن والملكية أصبحت الحرف أكثر تخصصًا وتنظيمًا.

الكتابة

لم تكن القراءة والكتابة منتشرة بين جميع السكان كانت الكتابة مهارة مرتبطة غالبًا بالكتبة والإدارة والمؤسسات السياسية والدينية ومع ظهور الممالك أصبحت الحاجة إلى تسجيل الضرائب والسلع والمراسلات أكبر وهكذا أصبحت الكتابة جزءًا من بناء الدولة لكن في المراحل المبكرة كانت معظم الحياة اليومية تعتمد على التقاليد الشفوية، لا على الوثائق المكتوبة.

في القرن العاشر قبل الميلاد، كان الإسرائيليون القدماء يستخدمون الخط العبري القديم، وهو خط ينتمي إلى البيئة الأبجدية الكنعانية التي انتشرت في بلاد الشام. ولم يكن هذا

الخط منفصلًا تمامًا عن الخطوط التي استخدمتها الشعوب المجاورة، بل كان قريبًا في أشكاله من الخط الكنعاني والفينيقي، إذ تعود هذه الأنظمة الكتابية إلى تقليد أبجدي مشترك.

كانت الأبجدية تتكون من اثنين وعشرين حرفًا، وكانت الكتابة تسير عادةً من اليمين إلى اليسار. وكانت الحروف تمثل الصوامت بصورة أساسية، بينما لم تكن الحركات تُكتب بالطريقة التي نعرفها في العبرية الحديثة؛ فأنظمة علامات الحركات ظهرت في عصور لاحقة وتتمثل أسماء الحروف القديمة في:

ألف، بيت، جيميل، دالت، هِه، واو، زايِن، حِت، طِت، يود، كاف، لامد، ميم، نون، سامخ، عين، فِه، صادي، قوف، ريش، شين، تاو.

ومن المهم التمييز بين هذه الأبجدية وبين الخط العبري المربع المعروف في الكتابة العبرية اللاحقة؛ فالخط المربع تطور في مرحلة تاريخية متأخرة، متأثرًا بالخط الآرامي، ولذلك لا يصح أن نتصور الإسرائيليين في القرن العاشر قبل الميلاد وهم يكتبون بالشكل العبري الحديث.

وكانت الكتابة تظهر على مواد مختلفة، منها الحجر والفخار والأختام والأدوات، كما استُخدمت على الأرجح مواد قابلة للتلف

مثل البردي والجلود، إلا أن معظم هذه المواد لم تصمد أمام الزمن. وتكشف لنا النقوش والأختام واللقى الكتابية عن وجود تقليد كتابي محلي لدى سكان ممالك إسرائيل ويهوذا، وعن استخدام الكتابة في الحياة اليومية والإدارية والدينية.

أما المسمارية، فقد كانت نظام كتابة مهمًا جدًا في الشرق الأدنى القديم، واستخدمتها ممالك المنطقة في المراسلات والإدارة والدبلوماسية، لكنها لم تكن الأبجدية التي كتب بها الإسرائيليون لغتهم. لذلك ينبغي ألا نخلط بين انتشار المسمارية في البيئة السياسية المحيطة وبين الخط العبري القديم الذي استخدمه الإسرائيليون.

وهكذا لم تكن الكتابة عند الإسرائيليين ظاهرة منفصلة عن محيطهم؛ بل كانت جزءًا من التطور الأبجدي الذي نشأ في بلاد الشام، والذي يربط تاريخيًا بين الكتابات الكنعانية والفينيقية والعبرية القديمة.

الملابس

كانت الملابس مصنوعة أساسًا من الألياف المتاحة، وخصوصًا الصوف والكتان وكانت طبيعة الملابس تتأثر بالمناخ والوضع الاجتماعي أما الأغنياء وأصحاب المناصب فكان بإمكانهم الحصول على أقمشة أفضل أو مزينة بدرجة أكبر.

لكن الملابس اليومية لغالبية السكان كانت عملية ومناسبة للعمل والحياة الزراعية.

وهنا تصبح الآثار مهمة، لأنها تكشف لنا جانبًا من الحياة التي لم تهتم النصوص السياسية بتسجيلها.

الأطفال

كان الأطفال يدخلون عالم العمل مبكرًا فالأسرة الزراعية تحتاج إلى الأيدي العاملة، ويمكن للأطفال المساعدة في رعاية الحيوانات، وجمع المحاصيل، والأعمال المنزلية وكانت الأسرة أيضًا المكان الأساسي الذي تنتقل فيه التقاليد واللغة والعادات والدين من جيل إلى آخر ولهذا كان الطفل جزءًا من عملية بناء الهوية منذ سنواته الأولى.

الدين في الحياة اليومية

لم يكن الدين منفصلًا عن الحياة اليومية فالزراعة نفسها كانت مرتبطة بالمواسم والخصوبة والمطر وكانت العائلة تمارس طقوسًا وتقاليد دينية داخل المجتمع وفي المراحل الأولى لم تكن عبادة يهوه قد أصبحت بالضرورة النظام التوحيدي الصارم الذي نعرفه من اليهودية اللاحقة بل كانت البيئة الدينية أكثر تعقيدًا.

الهوية تتشكل

كان سكان هذه القرى يتشاركون الكثير مع جيرانهم الكنعانيين لكن مع مرور الوقت ظهرت مجموعة من الخصائص التي ساعدت على تمييزهم.

طريقة الاستقرار وبعض العادات الغذائية مثل الامتناع عن لحم الخنزير والأنماط الاجتماعية والأهم لاحقًا تطور هوية دينية وسياسية مشتركة وهكذا لم تظهر الهوية الإسرائيلية جاهزة بل تكوّنت تدريجيًا.

شاول وبداية المملكة الإسرائيلية

مع نهاية القرن الحادي عشر قبل الميلاد تقريبًا، بدأت الظروف التي عاشتها المجتمعات الإسرائيلية في المرتفعات تتغير فلم تعد القرى المنفصلة قادرة دائمًا على مواجهة القوى المحيطة بها، وخصوصًا الفلستيين الذين امتلكوا مدنًا قوية وخبرة عسكرية واسعة ومن هذه البيئة ظهرت فكرة المملكة.

لكن الرواية القديمة لا تقدم شاول باعتباره ملكًا جاء إلى الحكم في ظروف هادئة، بل تربط ظهوره مباشرة بالحاجة إلى قائد يستطيع جمع القبائل ومواجهة الأعداء.

من القبائل إلى المملكة

كان المجتمع الإسرائيلي في بداياته قائمًا على مجموعات قبلية وعشائرية وكان لكل مجموعة زعماؤها وشيوخها ومصالحها المحلية لكن الحرب تحتاج إلى تنسيق أكبر.

فالجيش الذي يضم رجالًا من مناطق مختلفة يحتاج إلى قيادة موحدة، والقرارات العسكرية لا يمكن أن تعتمد دائمًا على اجتماعات الزعماء المحليين ولهذا أصبح وجود ملك أو قائد مركزي أكثر جاذبية في ظروف الصراع.

وتروي الرواية التوراتية أن بني إسرائيل طلبوا ملكًا مثل الشعوب المحيطة بهم، فجاء شاول لكن هذه الرواية نفسها تحمل موقفًا دينيًا وسياسيًا من فكرة الملكية، ولذلك لا ينبغي قراءتها باعتبارها محضرًا سياسيًا حرفيًا.

شاول

يظهر شاول في الروايات بوصفه أول ملك على إسرائيل ويرتبط حكمه أساسًا بالحروب، وخصوصًا الصراع مع الفلستيين وقد جاء اختياره في مرحلة كانت فيها القوة الفلستية تمثل تهديدًا حقيقيًا للمجتمعات الإسرائيلية في المناطق الداخلية ومن هنا يمكن فهم السبب الذي جعل الملكية مرتبطة بالجيش منذ بدايتها.

معركة مخماش

من أشهر الأحداث التي ترويها النصوص عن عهد شاول المعركة المرتبطة بـ مخماش وتظهر فيها القوات الإسرائيلية وهي تواجه قوة فلستية في منطقة جبلية صعبة.

وتحمل القصة عناصر عسكرية مثيرة، لكنها أيضًا جزء من الرواية الدينية التي تهدف إلى إظهار دور الإيمان والشجاعة في الانتصار.

أما تاريخيًا، فمن الصعب إعادة بناء تفاصيل المعركة كلها بصورة مستقلة لكن الموقع الجغرافي نفسه مهم، لأن المنطقة الواقعة شمال القدس كانت ممرًا استراتيجيًا بين المرتفعات والسهول.

يظهر شاول في الرواية كشخصية معقدة فهو قائد عسكري يستطيع جمع الرجال، لكنه يدخل في صراعات مع شخصيات أخرى، ويصبح التوتر بينه وبين داود أحد أهم محاور القصة.

وهنا تبدأ الرواية بالانتقال من قصة الملك إلى قصة الخلاف على السلطة كان داود في البداية شخصية أصغر من شاول في السلم السياسي، ثم أخذ نفوذه يتزايد تدريجيًا وتربط الروايات شهرته بانتصاره على جليات الفلستي وقد أصبحت القصة رمزًا

عالميًا للشجاعة، أما داود نفسه، فالأدلة الخارجية عنه أكثر أهمية.

فـ مسلة تل دان، التي تعود إلى القرن التاسع قبل الميلاد، تتضمن عبارة يقرأها غالبية الباحثين على أنها تشير إلى «بيت داود».

وهذا لا يثبت كل تفاصيل الروايات عن داود، لكنه يشير إلى أن اسم داود أصبح مرتبطًا بسلالة حاكمة في يهوذا، بعد فترة من الزمن.

تقدم الرواية علاقة شديدة التعقيد بين الرجلين فداود يبدأ كأحد رجال شاول، ثم يصبح منافسًا له، ويهرب من ملاحقته، ويجمع أتباعًا حوله وتظهر في القصة تحالفات ومناورات سياسية وعسكرية لكن هذه التفاصيل وصلت إلينا من نصوص أدبية ودينية جرى تدوينها وتحريرها عبر مراحل طويلة.

لذلك لا نستطيع التحقق من كل حادثة ومع ذلك، فإن فكرة الصراع على السلطة داخل مجتمع ملكي ناشئ تتوافق مع طبيعة السياسة في الشرق الأدنى القديم.

تنتهي قصة شاول بمعركة مع الفلستيين وتروي الرواية أن شاول وأبناءه قُتلوا في المعركة، وأن هذه النهاية فتحت الطريق أمام داود ومن الناحية السياسية، تمثل هذه المرحلة انتقالًا

مهمًا من مملكة ناشئة ومحدودة إلى سلطة أكثر قدرة على التوسع.

لماذا كان شاول مهمًا؟

حتى لو كانت مملكته محدودة، فإن أهمية شاول تكمن في أنه يمثل مرحلة الانتقال إلى النظام الملكي لقد أصبح هناك ملك وأصبح هناك جيش أكثر تنظيمًا وأصبح القرار السياسي أكثر مركزية وأصبح الصراع مع الجيران جزءًا من سياسة الدولة، وليس مجرد مواجهات قبلية منفصلة.

وهذه المؤسسات ستتطور أكثر في عهد داود.

بعد وفاة شاول، لم ينتقل الحكم إلى داود دون مقاومة فالرواية تذكر وجود صراعات داخلية، وانقسامات بين أنصار شاول وأنصار داود ثم أصبح داود تدريجيًا الحاكم الأقوى وكانت إحدى أهم خطواته الاستيلاء على أورشليم/القدس وجعلها مركزًا سياسيًا.

وهنا تبدأ مرحلة جديدة في تاريخ المملكة.

فداود لم يرث فقط سلطة شاول، بل عمل على بناء مركز سياسي يستطيع أن يجمع مناطق مختلفة تحت حكم واحد.

ومن هنا سننتقل إلى داود الملك، المحارب، وباني الدولة، لكن هذه المرة سنفصل بوضوح بين ما تقوله الرواية التوراتية وما تسمح لنا الآثار والنقوش بإثباته.

داود وبناء المملكة

مع وصول داود إلى السلطة تبدأ مرحلة مختلفة في تاريخ إسرائيل القديم فإذا كان شاول يمثل البدايات الأولى للمملكة، فإن داود يظهر في الرواية بوصفه الرجل الذي استطاع تحويل هذه المملكة الناشئة إلى قوة سياسية أكثر تماسكًا.

لكن هنا تحديدًا يجب أن نفرّق بين داود الذي تصفه الروايات وداود الذي نستطيع إثباته تاريخيًا.

فالأول شخصية أدبية ودينية شديدة التفصيل، أما الثاني فتدعمه أدلة أثرية محدودة لكنها مهمة.

لم يصل داود إلى الحكم في ظروف مستقرة فبحسب الرواية، كان عليه أولًا أن يتجاوز آثار الصراع مع شاول، وأن يثبت سلطته على المجموعات المختلفة وفي البداية حكم على يهوذا من مدينة حبرون، ثم أصبح لاحقًا ملكًا على إسرائيل أيضًا.

وهذه النقطة مهمة، لأنها تعكس أن الوحدة السياسية لم تكن أمرًا تلقائيًا كان هناك انتماء إلى يهوذا من جهة، وانتماء أوسع

إلى إسرائيل من جهة أخرى، وكان على الملك أن يجمع الطرفين تحت سلطة واحدة.

من أهم خطوات داود الاستيلاء على القدس وجعلها عاصمة وكان اختيار المدينة ذكيًا من الناحية السياسية فالقدس لم تكن في البداية العاصمة التقليدية لإحدى القوى الكبرى، ولذلك كان بإمكان داود أن يجعلها مركزًا جديدًا للسلطة الملكية، بعيدًا نسبيًا عن مراكز النفوذ القديمة للقبائل.

كما أن موقعها بين مناطق الشمال والجنوب جعلها مناسبة لتكون مركزًا للحكم وبمرور الزمن أصبحت القدس أهم مدينة في تاريخ إسرائيل ويهوذا.

توحيد المجموعات

كان التحدي الحقيقي أمام داود هو الحفاظ على وحدة المناطق التي خضعت له فالقبائل لم تختفِ بمجرد ظهور الملك وكان لكل جماعة مصالحها وزعماؤها ولهذا احتاج الملك إلى شبكة من القادة والموظفين والجنود، وإلى توزيع السلطة والثروة بطريقة تضمن استمرار الولاء وهنا تبدأ ملامح الدولة المركزية بالظهور.

ترتبط فترة داود في الرواية بسلسلة طويلة من الحروب.

الفلستيون الموآبيون العمونيون الأدوميون والآراميون.

وتصف النصوص توسعًا كبيرًا للمملكة لكن لا نستطيع قبول كل هذه الحدود باعتبارها حقيقة مؤكدة فالأدلة الأثرية لا تسمح بإعادة رسم إمبراطورية داود كما لو كانت خريطة سياسية مكتملة ومن المحتمل أن نفوذ المملكة كان متفاوتًا من منطقة إلى أخرى، وأن بعض المناطق خضعت للسيطرة المباشرة، بينما ارتبطت أخرى بالجزية أو التحالف أو الهيمنة المؤقتة.

الفلستيون وداود

ظل الفلستيون أحد أهم خصوم المملكة الناشئة وتشير الروايات إلى أن الصراع معهم استمر حتى تمكن داود من تقليص نفوذهم في مناطق معينة وهذا منطقي من الناحية الجغرافية.

فالدولة التي تتشكل في المرتفعات لا يمكنها تجاهل المدن الفلستية الموجودة على الساحل والسهول وكانت السيطرة على طرق العبور بين الساحل والداخل مسألة استراتيجية.

داود والآراميون

لم يكن الصراع محصورًا في الجنوب ففي الشمال ظهرت قوى آرامية أخذت تصبح أكثر أهمية وتشير الروايات إلى صراعات بين داود والآراميين، لكن حجم هذه الحملات ومدى السيطرة الإسرائيلية عليها يحتاج إلى الحذر عند إعادة بنائه.

فالقرن العاشر قبل الميلاد كان مرحلة تشكل سياسي واسعة في بلاد الشام، وكانت القوى المختلفة تتنافس على الأرض والطرق التجارية.

الاقتصاد والجزية

أي دولة توسعية تحتاج إلى موارد وكانت الجزية من الوسائل الأساسية في العالم القديم فالمدن والمناطق الخاضعة يمكن أن تقدم الذهب أو الفضة أو المواشي أو المنتجات الزراعية كما أن السيطرة على طرق التجارة توفر للدولة موارد إضافية وهذا ساعد الممالك الناشئة على تمويل الجيش والإدارة والمشروعات الملكية.

أورشليم في عهد داود

الرواية تجعل القدس مدينة مركزية في عهد داود لكن القدس في القرن العاشر قبل الميلاد لم تكن المدينة الضخمة التي نعرفها من الفترات اللاحقة كانت مدينة صغيرة نسبيًا، لكنها تمتلك موقعًا استراتيجيًا ورمزية متزايدة.

ومع انتقال مركز الحكم إليها بدأت أهميتها السياسية والدينية تتضاعف.

تابوت العهد

ترتبط القدس أيضًا بقصة تابوت العهد وتروي الرواية أن داود جلب التابوت إلى المدينة في احتفال كبير ومن الناحية الدينية، كان هذا الحدث مهمًا جدًا لأنه ربط مركز الحكم بمركز العبادة لكن لا توجد أدلة أثرية مستقلة تسمح لنا بإثبات وجود التابوت أو تتبع مصيره لذلك يبقى ضمن المجال الديني والتقليدي، وليس ضمن الأشياء التي نستطيع إثباتها أثريًا.

بعد أن استقر داود ملكًا على إسرائيل، أراد أن ينقل تابوت العهد إلى مدينة داود، أي القدس. وخرج موكب كبير يرافق التابوت، وكان داود أمامه يرقص فرحًا، مرتديًا ثوبًا كهنوتيًا بسيطًا. وتصف الرواية أن داود كان يقفز ويرقص أمام التابوت احتفالًا بوصوله إلى المدينة.

وفي أثناء نقل التابوت حدثت حادثة عُزّة؛ فعندما مالت الثيران التي تجر العربة، مدّ عُزّة يده ليمسك التابوت، فضُرب ومات بحسب الرواية، فتوقف داود عن نقله مؤقتًا. ثم نُقل التابوت لاحقًا إلى القدس، وأقيم الاحتفال، وكان داود يرقص أمامه من جديد.

وهنا تأتي قصة ميكال بنت شاول، زوجة داود؛ إذ رأته من نافذة القصر وهو يرقص أمام التابوت، فاحتقرته في نفسها بسبب ما رأت أنه تصرف لا يليق بملك. وبعد عودته، واجهته بكلام ينتقد

ظهوره أمام الناس بهذه الصورة، فأجابها داود بأنه كان يحتفل أمام الرب الذي اختاره ملكًا.

وهذه القصة مهمة ليس لأنها مجرد قصة عن الرقص، بل لأنها تكشف شيئًا عن طبيعة الاحتفال الديني والملكي في الرواية الإسرائيلية القديمة، وعن المكانة الرمزية التي كان يحملها تابوت العهد.

هل بنى داود إمبراطورية؟

هنا يأتي أحد أكبر الخلافات بين الباحثين الرواية التوراتية تصف داود بأنه مؤسس دولة واسعة وقوية.

لكن بعض الباحثين يرى أن المملكة في عهده كانت بالفعل كيانًا سياسيًا مهمًا لكنه أصغر بكثير من الصورة التقليدية.

والسبب أن الأدلة الأثرية من القرن العاشر قبل الميلاد لا تظهر بالضرورة دولة ضخمة تسيطر على مساحة هائلة.

وفي المقابل، هناك أدلة على وجود مراكز سياسية مهمة وتطور عمراني في مناطق من المرتفعات.

لذلك تبقى المسألة مفتوحة للنقاش.

مسلة تل دان

أهم دليل خارجي يتعلق بسلالة داود هو مسلة تل دان عُثر على أجزاء منها في شمال بلاد الشام، ويعود تاريخها إلى القرن التاسع قبل الميلاد ويتضمن النص عبارة يقرأها معظم الباحثين على أنها «بيت داود».

والمقصود ببيت هنا السلالة الحاكمة أي أن أحد ملوك بلاد الشام في القرن التاسع كان يشير إلى سلالة سياسية مرتبطة بداود وهذه قرينة مهمة جدًا على أن داود لم يكن مجرد شخصية أدبية اخترعت في عصور متأخرة.

لكنها لا تثبت تلقائيًا كل القصص المنسوبة إليه.

إنها تثبت، بدرجة قوية، وجود سلالة داودية معروفة في القرن التاسع قبل الميلاد.

داود بين التاريخ والرواية

وهنا تظهر الصورة المتوازنة لدينا شخصية اسمها داود مرتبطة بسلالة حاكمة في يهوذا ولدينا تقليد واسع يصفه كملك ومؤسس ولدينا مدينة القدس التي أصبحت مركزًا سياسيًا مهمًا ولدينا تطور حقيقي للمجتمعات في المرتفعات لكن ليس لدينا ما يكفي لإثبات كل معركة وكل مساحة من الأراضي وكل رقم ورد في الروايات وهذا لا يقلل من أهمية داود بل يجعل قصته أكثر

إثارة فمن وراء الشخصية التي حفظتها الروايات الدينية، نرى على الأرجح قائدًا حقيقيًا عاش في مرحلة كانت فيها دولة يهوذا وإسرائيل تتشكلان.

بعد داود، تنتقل الملكية إلى ابنه سليمان بحسب الرواية وهنا تدخل المملكة مرحلة مختلفة فبدل التركيز على الحروب، تصف الروايات عهد سليمان بأنه عصر بناء وتجارة وثراء وتربط به مشاريع ضخمة، وعلى رأسها بناء الهيكل في القدس.

كما تصفه بعلاقات واسعة مع مناطق أخرى، ومن أشهرها العلاقة مع مملكة سبأ.

والأهم أن عهد سليمان يقودنا إلى الحدث الذي سيغير تاريخ المملكة كلها انقسام المملكة إلى إسرائيل ويهوذا.

سليمان وانقسام المملكة

إذا كان داود يمثل مرحلة بناء السلطة وتوسيعها، فإن سليمان يمثل في الرواية مرحلة انتقال المملكة من القوة العسكرية إلى التنظيم والإدارة والبناء.

لكن عهده هو أيضًا المرحلة التي ستنتهي بانقسام المملكة، وهو الانقسام الذي سيغيّر تاريخ بلاد الشام السياسي لقرون طويلة.

سليمان والعرش

بحسب الرواية التوراتية، لم يصل سليمان إلى الحكم بصورة تلقائية فبعد وفاة داود نشأ صراع على الخلافة بين عدد من أبناء البيت الملكي، وانتهى الأمر بتثبيت سليمان ملكًا وتعكس هذه القصة مشكلة شائعة في الممالك القديمة من يرث الملك؟

ففي غياب نظام واضح للخلافة، يمكن أن يتحول موت الملك إلى أزمة سياسية وكانت السيطرة على الجيش والنخبة والقصور والمؤسسات الدينية عوامل حاسمة في تحديد من يجلس على العرش.

عمل سليمان، وفق الرواية، على تقوية الإدارة المركزية وتذكر النصوص تقسيمات إدارية ومسؤولين ومناطق مكلفة بتوفير احتياجات البلاط.

وإذا كان هذا الوصف يعكس واقعًا تاريخيًا بدرجة ما، فإنه يشير إلى انتقال المملكة من اتحاد قبلي واسع إلى دولة أكثر تنظيمًا.

فالملك لم يعد يعتمد فقط على الولاء الشخصي للزعماء بل أصبح يحتاج إلى موظفين وضرائب ومخازن وإدارة للموارد.

الضرائب والعمل الإجباري

لكن بناء الدولة له ثمن وتشير الروايات إلى فرض ضرائب وتكليف السكان بأعمال ومشروعات ملكية.

وكان نظام السُّخرة أو العمل الإجباري معروفًا في الشرق الأدنى القديم وقد يكون هذا النوع من الإجراءات أحد أسباب التوتر الذي انفجر بعد وفاة سليمان.

فالدولة القوية تحتاج إلى موارد، لكن زيادة الضرائب والعمل يمكن أن تجعل السكان يشعرون بأن السلطة المركزية أصبحت عبئًا عليهم.

بناء الهيكل

أشهر مشروع ارتبط بسليمان هو بناء هيكل القدس وفق الرواية، أصبح الهيكل المركز الرئيسي لعبادة يهوه، وأصبح مرتبطًا بالمملكة والقدس والهوية الدينية.

وتصف النصوص بناءً ضخمًا غنيًا بالخشب والمعادن والزخارف، وتذكر تعاونًا مع الفينيقيين، خصوصًا في توفير خشب الأرز والمهارات الحرفية لكن لا يمكننا اليوم دراسة الهيكل نفسه بصورة مباشرة، لأن المنشأة الأصلية لم تبقَ فوق سطح الأرض ولهذا نعتمد على الروايات القديمة والمقارنات مع المعابد الأخرى في بلاد الشام.

تربط الرواية سليمان بعلاقات وثيقة مع حيرام ملك صور وهذا الأمر منطقي من الناحية التاريخية؛ فصور كانت في ذلك الوقت مركزًا تجاريًا مهمًا، وكان التعاون بين الممالك الداخلية والمدن الساحلية أمرًا مفيدًا للطرفين.

فالداخل يمتلك منتجات زراعية وموارد مختلفة، بينما تمتلك المدن الساحلية خبرات بحرية وشبكات تجارية واسعة.

وكان الفينيقيون مشهورين بالحرفيين وبناء السفن والتجارة وصناعة الأخشاب والمعادن.

تصف الرواية سليمان بأنه أقام شبكة تجارية واسعة وتذكر الذهب والفضة والخيول والمركبات وغيرها من السلع لكن بعض هذه الأوصاف قد تعكس صورة أدبية عن ملك ثري وحكيم أكثر مما تعكس سجلًا اقتصاديًا دقيقًا.

ومع ذلك، فإن وجود تجارة واسعة في بلاد الشام خلال هذه الفترة أمر مؤكد عمومًا فالمنطقة كانت تقع بين مصر والأناضول وبلاد الرافدين والبحر المتوسط والجزيرة العربية، وكانت طرق التجارة تمر عبرها.

من أشهر القصص المرتبطة بسليمان قصة ملكة سبأ وتروي الرواية أنها جاءت إلى القدس لاختبار حكمته، وحملت معها هدايا ثمينة وقد أصبحت القصة جزءًا مهمًا من التراث الديني والأدبي في مناطق متعددة.

بحسب الرواية، أصبح الحكم في عهد سليمان مثقلًا بالضرائب والعمل وبعد وفاته ورث ابنه رحبعام العرش.

وهنا حدث الانفجار اجتمعت جماعات إسرائيلية وطلبت تخفيف الأعباء وكان جواب رحبعام حاسمًا بدل تخفيف الضرائب، أعلن موقفًا أكثر تشددًا وكانت النتيجة ثورة.

برز يربعام بن نباط قائدًا للمعارضة وانفصلت القبائل الشمالية عن بيت داود وهكذا انهارت الوحدة السياسية التي تنسبها الرواية إلى داود وسليمان وتشكل كيانان

مملكة إسرائيل في الشمال ومملكة يهوذا في الجنوب.

وهذه ليست مجرد حادثة سياسية عابرة فمنذ تلك اللحظة أصبح تاريخ المنطقتين مختلفًا بصورة متزايدة.

مملكة إسرائيل

كانت المملكة الشمالية أكبر من حيث المساحة والسكان والموارد وضمت مناطق خصبة ومهمة استراتيجيًا، وكانت أقرب إلى الطرق التجارية الشمالية وأصبحت لها عواصم ومراكز سياسية متعددة قبل أن تستقر العاصمة في السامرة.

يظهر يربعام في الرواية باعتباره مؤسس المملكة الشمالية وكان عليه أن يخلق هوية سياسية مستقلة عن القدس لذلك أقام مراكز دينية في بيت إيل ودان.

وهذه الخطوة كانت ذات أهمية سياسية كبيرة فإذا كانت القدس مركزًا دينيًا للمملكة الجنوبية، فإن المملكة الشمالية تحتاج إلى مراكز دينية خاصة بها وهكذا ارتبط الدين بالسياسة منذ البداية.

مملكة يهوذا

أما المملكة الجنوبية فكانت أصغر وكان مركزها القدس وحكمتها السلالة الداودية لفترات طويلة وكان موقعها الجغرافي في المرتفعات الجنوبية مختلفًا عن موقع إسرائيل الشمالية وقد أثر ذلك في اقتصادها وعلاقاتها السياسية.

دولتان وشعب واحد؟

رغم الانقسام السياسي، لم تختفِ الروابط بين سكان المملكتين كانت هناك لغة وثقافة مشتركة بدرجة كبيرة وكانت التقاليد الدينية متداخلة وكانت العائلات والقبائل تمتد أحيانًا عبر الحدود لكن السياسة بدأت تصنع اختلافات حقيقية أصبح لكل مملكة ملكها وجيشها ومصالحها وعلاقاتها الخارجية ومراكزها الدينية ومع مرور الوقت أصبحت الهوية السياسية لكل مملكة أقوى.

الصراع بين المملكتين

لم تكن إسرائيل ويهوذا حليفتين دائمًا فقد اندلعت بينهما صراعات وحروب وفي بعض الفترات تحالفتا ضد عدو مشترك،

وفي فترات أخرى قاتلت إحداهما الأخرى وهذا يعكس طبيعة الشرق الأدنى القديم، حيث لم يكن الانتماء الثقافي المشترك كافيًا لمنع الصراع السياسي.

قوة جديدة في الشمال

لكن الخطر الأكبر لم يكن داخل إسرائيل ويهوذا ففي الشمال والشرق كانت آشور تتحول إلى واحدة من أقوى الإمبراطوريات التي عرفها الشرق الأدنى وكان توسعها سيضع المملكتين أمام قوة لا تستطيعان تجاهلها وفي القرن التاسع قبل الميلاد، سيبدأ الملوك الآشوريون بالتدخل بصورة متزايدة في بلاد الشام وهنا ستدخل إسرائيل ويهوذا في مرحلة جديدة مرحلة الإمبراطوريات

مملكة إسرائيل في مواجهة القوى الكبرى

إسرائيل والممالك الآرامية

قبل أن تصبح آشور الخطر الأكبر، واجهت إسرائيل تحديات قريبة، وعلى رأسها الممالك الآرامية وكانت دمشق من أقوى القوى في بلاد الشام ودخلت إسرائيل ودمشق في سلسلة طويلة من الحروب والتحالفات المتغيرة وفي بعض الفترات كان الصراع مباشرًا، وفي فترات أخرى تعاون الطرفان لمواجهة خطر آشور وهذا التغير المستمر في التحالفات يوضح طبيعة السياسة في الشرق الأدنى القديم لم تكن هناك صداقات دائمة.

كان التحالف يتغير بحسب مصلحة كل ملك وحجم الخطر الذي يواجهه في القرن التاسع قبل الميلاد ظهر ملك إسرائيلي مهم هو عُمري وعلى الرغم من أن الرواية التوراتية لا تقدم عهده بصورة إيجابية، فإن الأدلة الخارجية تشير إلى أن سلالته كانت قوة سياسية حقيقية وقد أسس عُمري عاصمة جديدة هي السامرة وكان اختيار موقع العاصمة خطوة استراتيجية.

فالموقع يتمتع بمزايا دفاعية، ويقع في منطقة مناسبة للسيطرة على أجزاء واسعة من المملكة ومع الوقت أصبحت السامرة مركز المملكة الشمالية.

بيت عُمري

أصبح بيت عُمري من أهم الأسر الحاكمة في إسرائيل وتشير المصادر الآشورية إلى إسرائيل في زمن لاحق باسم يرتبط ببيت عُمري، وهو ما يدل على أن الأسرة كانت معروفة خارج حدود المملكة وهذا أمر مهم جدًا، لأنه يعطينا صورة مختلفة عن إسرائيل عن تلك التي تظهر فقط في الرواية الدينية.

ففي السجلات الخارجية، كانت إسرائيل دولة سياسية حقيقية لها ملك وجيش ونفوذ إقليمي.

ميشع ملك مؤاب

من أهم الأدلة الخارجية على هذه المرحلة مسلة ميشع، ملك مؤاب وهي نقش يعود إلى القرن التاسع قبل الميلاد، ويروي من وجهة النظر المؤابية صراع ميشع مع إسرائيل.

ويذكر النص الملك عُمري، ويشير إلى سيطرة إسرائيل على مناطق مؤابية، ثم يتحدث عن استعادة ميشع لتلك المناطق.

أهمية المسلة لا تكمن فقط في ذكر إسرائيل بل لأنها تعطينا رواية تاريخية من الطرف الآخر فالرواية الإسرائيلية شيء، والرواية المؤابية شيء آخر وهذا يذكرنا بأن تاريخ الشرق الأدنى القديم لم يكن يكتب من وجهة نظر واحدة.

آخاب

بعد عُمري جاء ابنه آخاب، الذي أصبح من أشهر ملوك إسرائيل وقد ارتبط اسمه في الروايات بعلاقته بإيزابل وبالصراع الديني مع النبي إيليا لكن المصادر الخارجية تعطينا صورة أخرى أيضًا فآخاب كان حاكمًا مهمًا في التحالفات الإقليمية وتذكر المصادر الآشورية أن ملك إسرائيل شارك في مواجهة آشور في معركة قرقر سنة ٨٥٣ قبل الميلاد.

كانت معركة قرقر مواجهة كبيرة بين الجيش الآشوري بقيادة شلمنصر الثالث وتحالف من ملوك بلاد الشام.

وكان الهدف الآشوري توسيع النفوذ غربًا وشارك في التحالف عدد من حكام المنطقة، ومن بينهم ملك إسرائيل وتشير السجلات الآشورية إلى قوة إسرائيل العسكرية وعدد كبير من المركبات ومهما كانت الأرقام الواردة في السجل مبالغًا فيها، فإن الحدث نفسه مهم فإسرائيل لم تكن مملكة صغيرة منعزلة.

كانت قادرة على الدخول في تحالف عسكري إقليمي ضد آشور.

إيليا وأليشع

في هذه المرحلة تظهر شخصيات دينية مهمة في الرواية التوراتية، وعلى رأسها إيليا ثم أليشع.

وترتبط قصصهما بالصراع حول عبادة يهوه وبمواجهة تأثير عبادة بعل لكن من الصعب تحديد التفاصيل التاريخية لكل قصة.

ما نستطيع فهمه هو أن المجتمع الإسرائيلي كان يعيش صراعًا دينيًا حقيقيًا حول طبيعة العبادة والهوية الدينية.

وهذا الصراع لم يكن منفصلًا عن السياسة فالملك يستطيع دعم معبد أو كاهن أو تقليد ديني، ويمكن للتيارات الدينية المعارضة أن تصبح قوة سياسية أيضًا.

ياهو

انتهى حكم بيت عُمري بانقلاب ياهو وتروي الرواية أنه أطاح بجورام وأباد أفراد الأسرة الحاكمة وكان ياهو مرتبطًا بحركة دينية ضد عبادة بعل لكن أهم دليل خارجي عليه يأتي من مسلة شلمنصر الثالث ففي النقش الآشوري تظهر صورة ياهو وهو ينحني أمام الملك الآشوري وهذه واحدة من أشهر الصور السياسية في تاريخ الشرق الأدنى القديم إنها لا تخبرنا فقط عن ياهو بل تُظهر بوضوح أن إسرائيل أصبحت مضطرة إلى التعامل مع الإمبراطورية الآشورية.

كان الانحناء أمام الملك الآشوري جزءًا من نظام سياسي إمبراطوري فالدولة الأصغر قد تحتفظ بملكها، لكنها تدفع الجزية وتعترف بتفوق آشور وكانت الجزية قد تكون ذهبًا أو فضة أو مواشي أو منتجات أخرى وبذلك تستطيع آشور السيطرة على منطقة واسعة دون الحاجة إلى احتلال كل مدينة بشكل دائم لكن هذا النظام لم يكن مستقرًا دائمًا.

فبمجرد ضعف آشور أو انشغالها في جبهة أخرى، كانت الممالك التابعة تحاول التمرد.

ازدهار إسرائيل

شهدت المملكة الشمالية خلال القرن الثامن قبل الميلاد فترة ازدهار كبيرة، خصوصًا في عهد يربعام الثاني توسعت المملكة واستعادت بعض المناطق وازدهرت التجارة والزراعة ونمت المدن وهذه الفترة مهمة لأنها تكشف أن إسرائيل لم تكن طوال تاريخها دولة ضعيفة أو مهددة باستمرار بل عرفت مراحل من القوة والثراء لكن الثروة نفسها خلقت مشكلات اجتماعية.

مع نمو المدن والاقتصاد ظهرت فجوة أكبر بين الأغنياء والفقراء أصبح بعض ملاك الأراضي يمتلكون مساحات واسعة، بينما فقد آخرون أراضيهم أو أصبحوا أكثر اعتمادًا على الأغنياء وهذه الظروف تظهر بوضوح في كتابات الأنبياء، خصوصًا عاموس وهوشع ولهذا لا يمكن فهم الأنبياء فقط كشخصيات دينية فخطابهم كان يتناول أيضًا الفقر والظلم والفساد واستغلال الضعفاء.

جاء عاموس من مملكة يهوذا، لكنه انتقد بشدة المجتمع في المملكة الشمالية وكان ينتقد الأغنياء الذين يراكمون الثروة على حساب الفقراء، والقضاة الذين يقبلون الرشاوى، والناس الذين يمارسون الطقوس الدينية بينما يظلمون الآخرين وتكشف كلماته عن مجتمع وصل إلى مستوى من الثراء يسمح بظهور

طبقة غنية، لكنه في الوقت نفسه يعاني من تفاوت اجتماعي واضح.

أما هوشع فركز أكثر على العلاقة بين إسرائيل ويهوه ورأى أن الابتعاد عن عبادة يهوه والتحالفات السياسية الخاطئة سيقودان المملكة إلى الهلاك وهنا نرى تداخل الدين والسياسة بصورة واضحة فبالنسبة إلى التيار النبوي، لم تكن السياسة مجرد حساب للقوة العسكرية كانت أيضًا مرتبطة بالالتزام الديني.

آشور تتقدم

لكن كل هذه الصراعات الداخلية أصبحت أقل أهمية عندما بدأت آشور تتوسع بقوة في القرن الثامن قبل الميلاد كان الملوك الآشوريون يعيدون تنظيم الإمبراطورية ويطورون جيوشًا هائلة وأصبحت الممالك الصغيرة أمام خيارين الخضوع أو المقاومة وفي النهاية ستختار إسرائيل المقاومة وهذا القرار سيؤدي إلى واحدة من أهم الكوارث في تاريخ المملكة سقوط السامرة.

ومن هنا تبدأ النهاية الفعلية لمملكة إسرائيل الشمالية.

سقوط مملكة إسرائيل

كان القرن الثامن قبل الميلاد نقطة تحول حاسمة في تاريخ مملكة إسرائيل فالمملكة التي عاشت مراحل من القوة والازدهار وجدت نفسها أمام قوة لم تكن تشبه خصومها السابقين.

كانت آشور تتحول إلى إمبراطورية قادرة على إسقاط الممالك وترحيل سكانها وإعادة تنظيم الأراضي التي تخضع لها ولم يعد بإمكان إسرائيل الاعتماد على تحالفاتها القديمة.

كان التوسع الآشوري نحو بلاد الشام جزءًا من سياسة إمبراطورية واسعة فالمناطق الواقعة غرب الفرات كانت مهمة اقتصاديًا واستراتيجيًا، لأنها تضم طرق التجارة وتصل آشور بالبحر المتوسط ومصر ولهذا كان على الممالك الشامية أن تتعامل مع آشور عاجلًا أم آجلًا وفي البداية كان بعض الملوك يقبلون دفع الجزية لكن الخضوع لم يكن دائمًا مستمرًا.

فعندما تضعف السلطة الآشورية أو ينشغل الملك بحروب أخرى، كانت الممالك التابعة تتوقف عن دفع الجزية وتحاول استعادة استقلالها.

في عهد شلمنصر الخامس ثم سرجون الثاني، دخلت مملكة إسرائيل في صراع مباشر مع آشور وكان آخر ملوك إسرائيل هو هوشع بن إيلة وتشير المصادر الآشورية إلى أن هوشع أصبح تابعًا لآشور، ثم توقف عن دفع الجزية وطلب المساعدة من مصر وكان هذا قرارًا بالغ الخطورة فمصر كانت بعيدة، ولم تكن قادرة دائمًا على تقديم المساعدة التي تحتاجها الممالك الشامية أما آشور فكانت على أبواب المملكة.

حصار السامرة

بدأت القوات الآشورية حصار السامرة وتختلف المصادر في التفاصيل المتعلقة بالسنوات والملك الذي أكمل الحصار، لكن النتيجة كانت واحدة سقطت السامرة وتؤرخ نهاية المملكة عادة إلى نحو ٧٢٢ أو ٧٢٠ قبل الميلاد، بحسب التسلسل الذي يُعتمد في المصادر وبسقوط العاصمة انتهى استقلال المملكة الشمالية.

ماذا فعل الآشوريون؟

لم تكن السياسة الآشورية تقتصر على إسقاط الملك كانت الإمبراطورية تستخدم نظامًا واسعًا من الترحيل السكاني.

فقد تنقل مجموعات من السكان من منطقة إلى أخرى، وتأتي بجماعات من مناطق مختلفة لتستقر في الأراضي المفتوحة.

وكان الهدف إضعاف التمرد، وكسر الروابط المحلية، وإعادة تنظيم الأراضي بما يخدم الدولة الآشورية وهذا ما حدث في أجزاء من مملكة إسرائيل.

السبي الآشوري

تذكر المصادر الآشورية عمليات ترحيل للسكان من مناطق المملكة أما الروايات التوراتية فتتحدث عن نقل عدد كبير من الإسرائيليين إلى مناطق أخرى في الإمبراطورية.

وهنا ظهرت لاحقًا فكرة الأسباط العشرة المفقودة.

لكن التعبير يحتاج إلى الحذر.

فلا يعني الترحيل أن كل سكان المملكة الشمالية نُقلوا ولا يعني أن الذين نُقلوا اختفوا فجأة من التاريخ بل كانت عملية إعادة توزيع سكاني بقي جزء من السكان في الأرض، وانتقل آخرون، واختلطوا بجماعات أخرى.

هل اختفت إسرائيل بالكامل؟ لا.

هذه من أهم النقاط سقوط المملكة لا يعني اختفاء كل سكانها فالمملكة كانت تضم عددًا كبيرًا من السكان، ولم يكن من الممكن نقل الجميع استمر سكان محليون في مناطق كثيرة كما انتقل بعض سكان الشمال إلى يهوذا وقد يكون هذا الانتقال أحد العوامل التي ساهمت في زيادة سكان مملكة يهوذا وفي انتقال تقاليد شمالية إليها ولهذا فإن فكرة أن عشرة أسباط اختفت بلا أثر هي تبسيط كبير للتاريخ.

ظهور السامريين

في القرون اللاحقة ظهرت جماعة عُرفت باسم السامريين، ارتبطت بمنطقة السامرة وحافظت على تقاليد دينية خاصة بها وقد نشأ جدل طويل حول أصلهم وعلاقتهم بالإسرائيليين القدماء وتقدم المصادر اللاحقة روايات مختلفة عنهم.

أما الدراسات الحديثة فتشير إلى تاريخ أكثر تعقيدًا من مجرد القول إنهم غرباء جلبهم الآشوريون فالسكان المحليون في المنطقة استمروا، وتفاعلت معهم جماعات أخرى، وتطورت هوية السامريين عبر الزمن ولهذا فإن تاريخ السامريين جزء مهم من قصة إسرائيل الشمالية بعد سقوط المملكة.

لماذا لم تسقط يهوذا؟

بعد سقوط إسرائيل، بقيت مملكة يهوذا في الجنوب وكانت أصغر وأكثر ارتباطًا بالقدس وأصبحت بين قوتين كبيرتين

آشور من الشمال والشرق.

ومصر من الجنوب.

وكان عليها أن تتعامل مع الإمبراطوريتين بحذر أحيانًا بالخضوع وأحيانًا بالتمرد.

يهوذا تحت النفوذ الآشوري

أصبحت يهوذا دولة تابعة لآشور لفترات وكان عليها دفع الجزية لكنها احتفظت بملكها ومؤسساتها الداخلية وهذا يوضح الفرق بين سقوط المملكة والخضوع للإمبراطورية لم تكن كل الأراضي التي تدخل الإمبراطورية تتحول فورًا إلى مقاطعة آشورية مباشرة كانت بعض الممالك تبقى موجودة تحت سلطة محلية مع الاعتراف بالسيادة الآشورية.

حزقيا

في أواخر القرن الثامن قبل الميلاد ظهر ملك مهم هو حزقيا ويُعد من أبرز ملوك يهوذا عمل على تقوية القدس والاستعداد لاحتمال الحرب مع آشور ومن أهم مشروعاته المرتبطة بالاستعداد للحصار نفق حزقيا الذي نقل المياه من نبع جيحون إلى داخل المدينة وهذا المشروع يكشف مدى أهمية إدارة المياه في المدن القديمة.

سنحاريب

جاءت المواجهة الكبرى في عهد الملك الآشوري سنحاريب ففي عام ٧٠١ قبل الميلاد شن حملة ضخمة على بلاد الشام ودخلت يهوذا في قلب الصراع وسقطت مدن يهودية كثيرة، وحُوصرت القدس لكن القدس لم تسقط وهنا نملك تطابقًا نادرًا بين مصادر

متعددة فالرواية التوراتية تصف الحصار والمصادر الآشورية تسجل حملة سنحاريب كما أن الآثار تؤكد حجم الدمار الذي أصاب أجزاء من يهوذا.

في السجل الآشوري، يذكر سنحاريب أنه حاصر حزقيا ملك يهوذا في أورشليم لكن اللافت أنه لا يقول إنه احتل المدينة وهذا يتفق مع حقيقة أن القدس بقيت خارج السيطرة الآشورية المباشرة بعد الحملة وتكشف هذه المقارنة أهمية المصادر المتعددة فكل طرف يروي الحدث من وجهة نظره.

الملك الآشوري يركز على انتصاراته.

والرواية التوراتية تركز على نجاة القدس.

أما المؤرخ فيضع الروايتين إلى جانب الأدلة الأثرية ويحاول الوصول إلى الصورة الأقرب.

لاخيش

كانت لاخيش مدينة محصنة مهمة وقد هاجمها الجيش الآشوري ونجح في إسقاطها وتظهر النقوش الآشورية تفاصيل الحصار الجنود، العربات، المدافعون، والأسرى. كما تكشف الحفريات في الموقع عن آثار الدمار الذي أصاب المدينة.

وهكذا نجد تطابقًا مهمًا بين النصوص الآشورية والأدلة الأثرية.

بعد سقوط إسرائيل

كان سقوط المملكة الشمالية أكثر من مجرد حدث سياسي لقد غيّر ميزان القوى في بلاد الشام أصبحت يهوذا آخر مملكة إسرائيلية مستقلة تقريبًا في المنطقة وزاد عدد السكان في بعض مناطقها بسبب انتقال مجموعات من الشمال كما أصبحت القدس مركزًا دينيًا وسياسيًا أكثر أهمية وبدأت تتشكل تدريجيًا تقاليد دينية ستصبح لاحقًا من أهم عناصر اليهودية.

لكن يهوذا نفسها لم تكن آمنة فالإمبراطوريات تتغير وآشور التي بدت في القرن الثامن لا تُقهر، ستبدأ بالضعف وسينشأ في الشرق منافس جديد بابل.

ومع صعود بابل، ستدخل يهوذا المرحلة الأكثر مأساوية في تاريخها فبعد سقوط إسرائيل، سيأتي الدور على المملكة الجنوبية وستسقط القدس، وسيدمر الهيكل، وسيبدأ ما يعرف باسم السبي البابلي.

مملكة يهوذا وسقوط القدس

بعد سقوط مملكة إسرائيل الشمالية، بقيت يهوذا وحدها تقريبًا بوصفها المملكة الإسرائيلية المستقلة في جنوب بلاد الشام لكن بقاءها لم يكن دليلًا على الاستقرار فخلال القرن السابع قبل الميلاد، تبدلت القوى الكبرى من حولها بسرعة. ضعفت آشور،

وصعدت بابل، ودخلت مصر مرة أخرى في صراع على النفوذ في بلاد الشام وأصبحت يهوذا عالقة بين إمبراطوريات أكبر منها بكثير.

من آشور إلى بابل

كانت آشور قد حكمت المنطقة بقوة لقرون، لكنها بدأت تدخل مرحلة ضعف في أواخر القرن السابع قبل الميلاد وفي عام ٦١٢ قبل الميلاد سقطت نينوى أمام التحالف البابلي والميدي.

وبعد سنوات قليلة انهار ما تبقى من النفوذ الآشوري وهنا ظهرت بابل بوصفها القوة الكبرى الجديدة في بلاد الرافدين وكان الملك نبوخذنصر الثاني أهم ملوكها ومع انتقال مركز القوة من آشور إلى بابل، اضطرت يهوذا إلى إعادة حساباتها السياسية.

يوشيا

في هذه المرحلة حكم يهوذا الملك يوشيا، الذي أصبح من أهم الملوك في تاريخ المملكة الجنوبية وتربط الروايات التوراتية عهده بإصلاح ديني واسع، هدفه تعزيز عبادة يهوه وتركيز العبادة في القدس وتتحدث النصوص عن إزالة عدد من الممارسات والمذابح المرتبطة بعبادات أخرى، وتعزيز مكانة الهيكل لكن من الناحية التاريخية، يصعب فصل الإصلاح الديني

عن التحولات السياسية فبعد ضعف آشور، أصبحت يهوذا أكثر قدرة على توسيع استقلالها، وكان توحيد العبادة حول القدس وسيلة دينية وسياسية في الوقت نفسه.

سفر الشريعة والإصلاح

تربط الرواية الإصلاحية باكتشاف كتاب الشريعة في الهيكل.

ومن الصعب تحديد النص المقصود بدقة من الناحية التاريخية، لكن كثيرًا من الباحثين يرون أن عهد يوشيا كان مرحلة مهمة في تطور التقاليد التي ستصبح لاحقًا جزءًا أساسيًا من الكتاب المقدس العبري وهنا يظهر شيء مهم:

الدين لم يكن مجرد انعكاس للسياسة، والسياسة لم تكن منفصلة عن الدين فإعادة تنظيم العبادة كانت في الوقت نفسه إعادة تنظيم للهوية والمجتمع والسلطة.

لكن يوشيا دخل في صراع مع مصر فبعد سقوط آشور، حاول الفرعون نخاو الثاني التحرك شمالًا لمساندة المصالح المصرية في المنطقة خرج يوشيا لمواجهته في مجدو وانتهت المعركة بمقتل يوشيا وكان موته نقطة تحول كبيرة فبعده أصبحت يهوذا أكثر ضعفًا أمام القوى الكبرى.

مصر وبابل

لم تكن بلاد الشام في ذلك الوقت مجرد منطقة بين مصر وبابل كانت ساحة صراع بينهما كانت مصر تريد الحفاظ على نفوذها شمالًا أما بابل فكانت تريد السيطرة على الأراضي التي كانت تحت النفوذ الآشوري وكانت يهوذا في موقع لا يسمح لها بالابتعاد عن هذا الصراع وهكذا أصبحت قرارات الملوك اليهود مرتبطة بشكل مباشر بحركة الجيوش الإمبراطورية.

نبوخذ نصر

بعد انتصار بابل، أصبح نبوخذنصر القوة المهيمنة في المنطقة وحاولت يهوذا في البداية الاستمرار تحت النفوذ البابلي لكن التوتر تصاعد ثم جاء التمرد وكانت النتيجة كارثية الحصار البابلي فرض الجيش البابلي حصارًا على القدس وكان الحصار في العالم القديم سلاحًا شديد الفعالية فالمدينة المحصنة يمكن أن تصمد أمام الهجوم المباشر، لكنها تصبح ضعيفة إذا مُنع عنها الطعام والماء ومع استمرار الحصار بدأت الأوضاع داخل القدس تتدهور وتروي النصوص مشاهد شديدة القسوة عن الجوع واليأس في النهاية اخترقت القوات البابلية دفاعات المدينة وسقطت القدس ودخل الجيش البابلي إليها ثم حدث الحدث الأكثر شهرة في هذه الكارثة دُمر الهيكل.

وكان تدميره ضربة دينية وسياسية ونفسية هائلة فالهيكل لم يكن مجرد مبنى كان مركزًا للعبادة، ورمزًا للمدينة، ومرتبطًا بالمملكة والهوية ولهذا كان تدميره يعني انهيار جزء أساسي من العالم الذي عرفته يهوذا.

ماذا حدث للذين بقوا بعد السبي البابلي؟

لم تصبح يهوذا أرضًا خالية استمر الفلاحون وغيرهم من السكان في العيش فيها واستمر الإنتاج الزراعي لكن النظام السياسي القديم انهار لم يعد هناك ملك داودي يحكم من القدس.

ولم يعد الهيكل قائمًا وهذا التغير كان عميقًا جدًا.

أما الذين نُقلوا إلى بابل، فلم يعيشوا بالضرورة في سجن سمحت الإمبراطوريات القديمة للمجموعات المرحّلة بأن تعيش في تجمعات وتعمل وتملك بعض الممتلكات وتكشف وثائق بابلية لاحقة عن وجود أشخاص من يهوذا يعيشون في المجتمع البابلي ويمارسون نشاطًا اقتصاديًا وهذه الوثائق مهمة لأنها تجعل السبي حدثًا تاريخيًا ملموسًا، لا مجرد قصة دينية.

ماذا فعل السبي بالهوية؟

هنا حدث تحول بالغ الأهمية فقد وجد المجتمع اليهودي نفسه أمام سؤال لم يكن سهلًا كيف يمكن الحفاظ على الهوية عندما لم تعد هناك مملكة ولا ملك ولا هيكل؟

وكانت الإجابة تدريجية أصبحت النصوص والتقاليد والذاكرة الجماعية أكثر أهمية وأصبحت الهوية الدينية قابلة للاستمرار حتى خارج الأرض وهذا أحد الأسباب التي جعلت فترة المنفى مرحلة حاسمة في تطور الفكر الديني الإسرائيلي.

هل كان السبي نهاية إسرائيل؟ لا.

وكذلك لم يكن نهاية يهوذا بالكامل بل تحول المجتمع فالسكان الذين بقوا في الأرض استمروا والمنفيون استمروا في بابل وبعد عقود ستظهر قوة جديدة هي الإمبراطورية الفارسية، وستسمح لبعض المنفيين بالعودة إلى القدس لكن المجتمع الذي سيعود لن يكون مطابقًا للمملكة القديمة فالعالم تغير والدين تغير والهوية تغيرت والتجربة البابلية ستترك أثرًا عميقًا في الذاكرة الدينية.

نهاية الممالك وبداية مرحلة جديدة

وهكذا انتهى العصر الذي بدأت فيه إسرائيل ويهوذا كمملكتين ظهرت إسرائيل من مجتمعات المرتفعات ثم أصبحت مملكة قوية وانقسمت إلى دولتين ازدهرت إسرائيل ثم سقطت أمام آشور وبقيت يهوذا فترة أطول ثم سقطت أمام بابل.

لكن سقوط الممالك لم يكن نهاية القصة بل كان بداية مرحلة جديدة ستشهد تطورًا دينيًا وثقافيًا هائلًا.

وسنصل بعدها إلى الفرس، ثم العصر الهلنستي، ثم الرومان.

لكن قبل أن نغادر العبرانيين والإسرائيليين، يبقى سؤال جوهري يجب أن نفهمه كيف تطور دينهم من بيئة كنعانية متعددة الآلهة إلى التوحيد الذي أصبح لاحقًا أساس اليهودية؟

لأن قصة الدين هنا ليست هامشًا في تاريخهم؛ إنها واحدة من أهم التحولات الفكرية في تاريخ الشرق الأدنى كله.

الدين وتطور عبادة يهوه

إذا أردنا فهم العبرانيين والإسرائيليين، فلا يكفي أن نعرف أسماء ملوكهم وحروبهم فالدين كان جزءًا أساسيًا من حياتهم اليومية، ومن نظامهم السياسي، ومن تصورهم لأنفسهم وللعالم من حولهم لكن من المهم ألا نضع أمامنا صورة اليهودية التوحيدية اللاحقة ونفترض أنها كانت موجودة بالشكل نفسه منذ بداية ظهور إسرائيل فالأدلة التاريخية والأثرية تشير إلى تطور طويل ومعقد.

البيئة الدينية في كنعان

نشأت الجماعات الإسرائيلية داخل عالم كنعاني كانت فيه عبادة آلهة متعددة أمرًا طبيعيًا وكان من أبرز الآلهة إيل، وبعل، وعشتروت، وآلهة أخرى ارتبطت بالمطر والخصوبة والحرب والحماية ولم تكن المجتمعات الإسرائيلية في البداية منفصلة

تمامًا عن هذه البيئة فهي خرجت إلى حد كبير من المجتمع الكنعاني نفسه، ولذلك حملت معها الكثير من عناصر ثقافته ولغته وتقاليده.

يهوه

ظهر اسم يهوه بوصفه الإله الذي أصبح لاحقًا الإله المركزي لإسرائيل لكن أصل عبادة يهوه نفسه ما زال موضوعًا للنقاش بين الباحثين.

هناك نظريات تربط أصول العبادة بالمناطق الجنوبية من بلاد الشام، مثل أدوم ومناطق قريبة منها، بينما يرى آخرون أن الصورة أكثر تعقيدًا.

ولا يوجد اتفاق نهائي على المكان الذي بدأت فيه عبادة يهوه لكن ما نعرفه بوضوح هو أن يهوه أصبح مع مرور الوقت الإله الأساسي للهوية الإسرائيلية.

هل كان الإسرائيليون موحدين منذ البداية؟

على الأرجح لا، إذا قصدنا بالتوحيد الاعتقاد بأن هناك إلهًا واحدًا فقط ولا وجود لأي آلهة أخرى.

فالأدلة تشير إلى أن المعتقدات الإسرائيلية القديمة كانت أكثر تنوعًا وقد يكون بعض الناس عبدوا يهوه باعتباره إلههم

الأساسي، مع الاعتراف بوجود آلهة أخرى وهذا يختلف عن التوحيد الصارم وهنا نحتاج إلى التمييز بين مفهومين الأول عبادة إله واحد باعتباره إله الجماعة.

والثاني الإيمان بأن هناك إلهًا واحدًا فقط في الكون.

الانتقال من الأول إلى الثاني لم يحدث في لحظة واحدة.

الدليل الأثري

توجد بعض الاكتشافات التي تكشف لنا أن الواقع الديني كان أكثر تعقيدًا مما توحي به النصوص التوحيدية اللاحقة ومن أشهرها نقوش كونتيلة عجرود التي تعود إلى القرن الثامن قبل الميلاد تقريبًا وتتضمن إشارات إلى يهوه، وعبارات أثارت نقاشًا كبيرًا بين الباحثين بسبب ارتباطها باسم أشيرة.

وتكشف هذه الأدلة عن تنوع في الممارسات الدينية القديمة مما يشر إلى أن الحياة الدينية الفعلية كانت أكثر تنوعًا من الصورة التي أصبحت سائدة في النصوص اللاحقة.

أشيرة

كانت أشيرة من الآلهة المعروفة في بلاد الشام وفي التقاليد الكنعانية كانت مرتبطة بالإله إيل أما علاقتها بيهوه في بعض الأدلة الإسرائيلية القديمة، فقد أثارت جدلًا واسعًا ولا يعني

وجود اسم أشيرة في سياق مرتبط بيهوه بالضرورة أن جميع الإسرائيليين كانوا يعبدونها مع يهوه بالطريقة نفسها لكنه يدل على أن الحدود بين التقاليد الدينية لم تكن واضحة دائمًا في المراحل المبكرة.

بعل

كان بعل من أهم الآلهة في بلاد الشام ارتبط بالمطر والعاصفة والخصوبة، ولذلك كانت عبادته مهمة جدًا في مجتمع يعتمد على الزراعة ولهذا لا عجب أن تظهر في النصوص الإسرائيلية صراعات متكررة ضد عبادة بعل.

فالزراعة تحتاج إلى المطر، والمطر كان مرتبطًا دينيًا بقوى الآلهة ومن هنا كان الصراع حول بعل مرتبطًا أيضًا بمشكلة أعمق من يملك السلطة على المطر والخصوبة والحياة؟

الأنبياء والصراع الديني

يظهر الأنبياء في الروايات الإسرائيلية بوصفهم مدافعين عن عبادة يهوه في مواجهة عبادات أخرى وكان بعضهم يهاجم الملوك مباشرة وهذا أمر لافت ففي كثير من المجتمعات القديمة كان الملك مرتبطًا بالمؤسسة الدينية، لكن في إسرائيل ويهوذا تطورت تقاليد تسمح للنبي بأن يقف أمام الملك وينتقده باسم الإله وهذا أعطى الخطاب الديني دورًا سياسيًا وأخلاقيًا قويًا.

إصلاح يوشيا

وصلت محاولات تركيز العبادة على يهوه إلى مرحلة مهمة في عهد الملك يوشيا فقد ارتبط عهده بإصلاح ديني واسع، شمل إزالة عدد من الممارسات والمذابح المرتبطة بعبادات أخرى، وتعزيز مركزية القدس وقد يكون هذا الإصلاح جزءًا من عملية طويلة نحو توحيد العبادة.

لكن حتى هنا، لا ينبغي أن نتصور أن المجتمع بأكمله تغير في ليلة واحدة فالممارسات الدينية الشعبية لا تتغير بسهولة بقرار ملك.

الهيكل والقدس

كان هيكل القدس مركزًا مهمًا للعبادة الرسمية لكن وجود الهيكل لم يمنع بالضرورة ممارسة الطقوس في أماكن أخرى خلال المراحل المبكرة وتكشف الروايات نفسها عن وجود مرتفعات ومذابح محلية ولهذا كانت عملية جعل القدس المركز الديني الوحيد مشروعًا طويلًا وكانت له آثار سياسية أيضًا.

فكلما أصبحت العبادة مركزة في القدس، أصبحت المدينة والملك والمؤسسة الكهنوتية أكثر قوة.

الدين في البيت

لم تكن العبادة مقتصرة على المعبد فالكثير من الممارسات الدينية كان يحدث داخل البيوت وقد ارتبطت الأسرة بطقوس تتعلق بالحماية والخصوبة والولادة والموت والمواسم الزراعية.

وهنا يظهر الفرق بين الدين الرسمي الذي تدعمه الدولة، والدين الشعبي الذي يمارسه الناس في حياتهم اليومية وهذا الفرق مهم جدًا لفهم المجتمع القديم.

المنفى البابلي

كان المنفى تجربة مؤلمة، لكنه أدى أيضًا إلى إعادة صياغة الهوية بدأت النصوص والتقاليد تكتسب أهمية أكبر.

وأصبح الحفاظ على السبت، والأنساب، والختان، والقوانين الغذائية، والطقوس، وسائل للحفاظ على الانتماء.

وبدأت فكرة أن يهوه ليس مجرد إله محلي مرتبط بأرض إسرائيل، بل إله قادر على أن يكون مع شعبه حتى خارج أرضه، تصبح أكثر أهمية.

نحو التوحيد

خلال هذه العملية أصبح الاعتقاد بأن يهوه هو الإله الوحيد أكثر وضوحًا وتظهر في النصوص المتأخرة عبارات صريحة ترفض وجود آلهة أخرى وهنا نقترب من التوحيد بالمعنى المعروف.

لكن هذا التحول كان نتيجة قرون من التطور الديني والفكري، وليس نتيجة قرار واحد.

من إسرائيل إلى اليهودية

بعد سقوط المملكة الشمالية، ثم سقوط يهوذا، وبعد تجربة السبي والعودة لاحقًا، بدأ المجتمع الذي كان يعرف نفسه بأبناء إسرائيل يتغير وأصبح الانتماء إلى يهوذا/اليهود أكثر ارتباطًا بهوية دينية وثقافية محددة ومن هنا بدأ الطريق الطويل الذي سيؤدي إلى ظهور اليهودية بصورتها المعروفة في العصور اللاحقة لكن قبل أن نغلق ملف العبرانيين والإسرائيليين، علينا أن نتوقف عند نقطة أخيرة شديدة الأهمية:

ماذا تقول الآثار والنقوش عن وجود إسرائيل ويهوذا فعلًا؟

فبينما تحفظ الروايات أسماء الملوك والأنبياء والحروب، تركت القوى المجاورة أيضًا سجلاتها.

وفي تلك السجلات سنجد إسرائيل مذكورة على يد مصر وموآب وآشور، وسنرى ملوكًا مثل عُمري وآخاب وياهو وحزقيا، ونستطيع أن نقارن الرواية الإسرائيلية بالروايات التي كتبها خصومها وهنا تصبح الصورة التاريخية أكثر وضوحًا.

إسرائيل ويهوذا في عيون الآخرين

إذا أردنا أن نعرف ما إذا كانت إسرائيل ويهوذا مجرد شخصيات في الروايات القديمة أم كيانات سياسية حقيقية، فإن أفضل ما يمكن فعله هو الخروج من النصوص الإسرائيلية نفسها والنظر إلى ما تركه جيرانهم وهنا تصبح الأدلة أكثر قوة.

فمصر وموآب وآشور، ثم قوى أخرى في المنطقة، تركت نقوشًا وسجلات تذكر شعوبًا وملوكًا وأحداثًا مرتبطة بإسرائيل ويهوذا وهذه المصادر لا تتفق دائمًا مع الروايات الإسرائيلية وهذا تحديدًا ما يجعلها مهمة.

أقدم ذكر معروف لاسم إسرائيل يأتي من مصر وهو موجود في لوحة مرنبتاح التي تعود إلى أواخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد، نحو ١٢٠٨ قبل الميلاد ويذكر النص إسرائيل ضمن الجماعات الموجودة في كنعان.

واللافت أن الكتابة المصرية تستخدم علامة تحديد تدل على أن إسرائيل كانت تُفهم باعتبارها جماعة أو شعبًا، لا مدينة أو مملكة وهذه نقطة مهمة جدًا.

فهذا الدليل يضع اسم إسرائيل في كنعان قبل ظهور المملكة الإسرائيلية بوقت طويل أي أن هوية تحمل اسم إسرائيل كانت موجودة بالفعل في المنطقة خلال بدايات العصر الحديدي.

بعد نحو أربعة قرون، نجد دليلًا مختلفًا تمامًا إنها مسلة ميشع، ملك مؤاب يصف ميشع صراعه مع إسرائيل، ويتحدث عن الملك عُمري وسيطرة إسرائيل على مناطق مؤابية.

والأهم أن النص يقدم الأحداث من وجهة نظر مؤابية فما تعتبره إسرائيل انتصارًا أو حقًا سياسيًا، قد تعتبره مؤاب احتلالًا يجب التخلص منه وهذا يذكرنا بأن التاريخ القديم لم يكن له راوٍ واحد.

تزداد أهمية عُمري عندما ننتقل إلى المصادر الآشورية فآشور كانت تنظر إلى إسرائيل باعتبارها دولة مهمة في بلاد الشام، ولذلك استخدم بعض الملوك الآشوريين تعبيرًا يشير إلى بيت عُمري وهذا التعبير يعني السلالة أو الدولة المرتبطة بعُمري.

واللافت أن الاسم ظل مستخدمًا حتى بعد انتهاء حكم الأسرة نفسها وهذا دليل على قوة الشهرة السياسية التي اكتسبتها إسرائيل في المنطقة.

في عام ٨٥٣ قبل الميلاد تقريبًا، واجه الملك الآشوري شلمنصر الثالث تحالفًا من ملوك بلاد الشام في معركة قرقر.

ويذكر السجل الآشوري آخاب الإسرائيلي ضمن القوى المشاركة وهذه شهادة خارجية مهمة جدًا فهي تخبرنا أن ملك إسرائيل كان يمتلك قوة عسكرية تسمح له بالمشاركة في تحالف إقليمي كبير.

وتذكر السجلات أعدادًا ضخمة من الجنود والمركبات، لكن الأرقام في السجلات الملكية الآشورية كثيرًا ما كانت جزءًا من خطاب الانتصار، ولذلك يجب التعامل معها بحذر.

ثم يظهر ملك آخر من إسرائيل ياهو وتقدم لنا مسلة شلمنصر الثالث مشهدًا شهيرًا جدًا يظهر فيه ياهو وهو يقدم الجزية للملك الآشوري وهذه المرة لا نعتمد على نص فقط لدينا أيضًا تصوير بصري للملك وبذلك نمتلك دليلًا خارجيًا على وجود ياهو وعلى علاقة سياسية مباشرة بينه وبين آشور.

هل تتفق المصادر؟ ليس دائمًا.

الرواية الإسرائيلية يمكن أن تقدم الملك بوصفه منتصرًا أو صاحب شرعية أما آشور فكانت تسجل الأحداث من منظور الإمبراطور المنتصر وقد تقول آشور إنها أخضعت ملكًا، بينما قد تكون المملكة نفسها ما تزال تتمتع بدرجة كبيرة من الاستقلال الداخلي ولهذا يجب ألا نأخذ الدعاية الملكية حرفيًا.

فالملوك القدماء لم يكونوا مؤرخين محايدين.

تأتي المصادر الآشورية بأهمية أكبر عند الحديث عن نهاية المملكة فالسجلات الآشورية توثق حملات التوسع في بلاد الشام، وتذكر الأحداث المرتبطة بإسرائيل وقد وقع سقوط السامرة في نهاية القرن الثامن قبل الميلاد، خلال حكم شلمنصر الخامس ثم سرجون الثاني وتنسب السجلات الآشورية عمليات ترحيل للسكان وإعادة تنظيم الأراضي وهذا يتفق مع ما نعرفه عن السياسة الإمبراطورية الآشورية في مناطق أخرى. يذكر سرجون الثاني السيطرة على السامرة وترحيل سكان منها.

لكن يجب الانتباه إلى مسألة مهمة بعض النصوص التوراتية تربط سقوط السامرة أساسًا بحصار طويل في عهد شلمنصر الخامس، بينما تبرز السجلات الملكية الآشورية أدوار الملوك المختلفين بحسب الفترة التي كُتبت فيها ولهذا فإن إعادة بناء الحدث تحتاج إلى جمع أكثر من مصدر، لا الاعتماد على سجل واحد.

بعد سقوط إسرائيل، تظهر يهوذا بصورة أوضح في السجلات الآشورية ومن أهم الملوك المذكورين حزقيا ملك يهوذا وقد سجل سنحاريب حملته على بلاد الشام عام ٧٠١ قبل الميلاد يذكر سنحاريب أنه هزم عددًا كبيرًا من المدن في يهوذا، وأنه

حاصر حزقيا في القدس لكن النقطة اللافتة هي أن السجل الآشوري لا يقول إن القدس سقطت.

وهذه المعلومة تتوافق مع استمرار مملكة يهوذا بعد الحملة.

أما الرواية التوراتية فتروي أن الجيش الآشوري لم يتمكن من الاستيلاء على القدس وهنا نجد مثالًا ممتازًا على إمكانية مقارنة مصدرين مستقلين لا يعني الاتفاق أن كل شيء صحيح حتى عندما تتفق المصادر في حدث معين، لا يعني ذلك أن كل التفاصيل الواردة في أحدها صحيحة فقد تتفق المصادر على وجود حملة عسكرية، لكنها تختلف في عدد الجنود، وحجم الخسائر، ومن انتصر، وما السبب الحقيقي للنتيجة.

ولهذا يستخدم المؤرخون الأدلة بحذر.

ومن الأدلة المهمة من داخل يهوذا نفسها نقش سلوام يرتبط النقش بحفر النفق الذي نقل المياه إلى القدس في عهد حزقيا وهو يصف التقاء مجموعتين من العمال أثناء حفر النفق من طرفين مختلفين وهذا النص صغير، لكنه بالغ الأهمية لأنه يقدم دليلًا مباشرًا على مشروع هندسي في القدس القديمة وهو يتوافق مع وصف الروايات القديمة للاستعدادات التي قام بها حزقيا للحصار.

ومن أهم النقوش التي ناقشناها سابقًا مسلة تل دان فالنص يذكر عبارة بيت داود، وهو ما يدل على وجود سلالة حاكمة

ارتبط اسمها بداود في يهوذا وهذا لا يثبت أن كل قصة داود حدثت كما وردت في الروايات لكنه يثبت أن اسم داود كان مرتبطًا بسلالة سياسية حقيقية في القرن التاسع قبل الميلاد.

ومن هنا تبدأ مرحلة مختلفة تمامًا من تاريخ المنطقة، حيث ستظهر اليهودية في صورتها المتأخرة، والمجتمعات اليهودية في العصر الفارسي والهلنستي، ثم الصراع مع القوى الهلنستية والرومانية وهكذا لا تنتهي قصة العبرانيين والإسرائيليين بسقوط القدس، بل تتحول من تاريخ ممالك إلى تاريخ شعب وهوية ودين استمروا بعد زوال الممالك نفسها.

من السبي إلى العصر الفارسي

لم يكن سقوط القدس ونهاية مملكة يهوذا نهاية تاريخ بني إسرائيل بل كان بداية مرحلة جديدة تمامًا فقد اختفت الملكية، ودُمّر الهيكل، وتوزع السكان بين من بقي في يهوذا ومن نُقل إلى بابل، لكن الهوية لم تختفِ وبعد أقل من قرن، سيتغير ميزان القوى مرة أخرى هذه المرة لمصلحة الفُرس.

بعد وفاة نبوخذنصر الثاني، مرت الإمبراطورية البابلية بمرحلة من الاضطراب السياسي وكان آخر ملوكها نبونيد وقد اتخذ سياسات دينية وسياسية أثارت مشكلات داخلية، بينما كانت قوة جديدة تتصاعد شرقًا الإمبراطورية الأخمينية الفارسية وكان

قائدها الصاعد كورش الثاني، المعروف باسم كورش الكبير في عام ٥٣٩ قبل الميلاد دخل كورش بابل وانتهى الحكم البابلي.

لكن سياسة كورش تجاه الشعوب التي خضعت له كانت مختلفة في جوانب مهمة عن بعض السياسات الإمبراطورية السابقة.

فبدل الاعتماد دائمًا على الترحيل الجماعي، سمحت الإدارة الفارسية في حالات عديدة للجماعات المرحّلة بالعودة إلى مناطقها وإعادة تنظيم مؤسساتها المحلية وكان لهذا أثر مباشر على يهود المنفى.

أسطوانة كورش

اكتُشفت أسطوانة طينية في بابل، وهي مكتوبة باللغة الأكدية المسمارية وتصف دخول كورش إلى بابل وسياسته تجاه المدينة ومعبدها وتُظهر أهمية المؤسسات الدينية في سياسته.

لكن من الخطأ وصف الأسطوانة بأنها إعلان حقوق إنسان بالمعنى الحديث هي وثيقة ملكية من العالم القديم، وتقدم صورة إيجابية عن كورش بوصفه ملكًا أعاد النظام واحترم الآلهة المحلية.

العودة لم تكن دفعة واحدة لم يعد جميع اليهود إلى يهوذا وهذه نقطة أساسية لذلك كانت العودة عملية تدريجية شاركت فيها جماعات معينة، بينما بقي آخرون في بابل.

العودة إلى القدس

تروي الروايات القديمة أن كورش سمح لليهود بالعودة إلى القدس وإعادة بناء الهيكل والعودة لم تكن بالضرورة حدثًا واحدًا شارك فيه الجميع فبعض المنفيين عادوا وبعضهم بقي في بابل وهذا مهم جدًا، لأن المجتمع اليهودي لم يعد مرتبطًا بجغرافيا واحدة فقط بدأت تظهر جماعات يهودية خارج يهوذا، وفي الوقت نفسه استمر مجتمع يهودي في القدس وما حولها.

زربابل

ارتبطت المرحلة الأولى من العودة باسم زربابل وكان من سلالة داود بحسب الرواية التوراتية، وظهر بوصفه أحد قادة العائدين لكن من المهم ألا نخلط بين نسبه الملكي وبين قيام مملكة داودية جديدة لم تظهر مملكة مستقلة بل بقيت يهودا تحت الحكم الفارسي.

إعادة بناء الهيكل

بدأت عملية إعادة بناء الهيكل، لكنها لم تكن سهلة واجه المشروع صعوبات سياسية واقتصادية ومحلية واستغرق سنوات ثم اكتمل الهيكل الثاني في القرن السادس قبل الميلاد وكان ذلك حدثًا بالغ الأهمية فالقدس أصبحت مرة أخرى مركز العبادة لكنها لم تعد عاصمة مملكة مستقلة.

الهيكل الثاني

كان الهيكل الجديد مختلفًا عن هيكل سليمان القديم لم يكن مجرد إعادة بناء حجرية للمبنى السابق بل كان جزءًا من مجتمع تغير بصورة عميقة خلال السبي فقد عاد الناس وهم يحملون معهم تجارب جديدة وكانت الشريعة والهوية الدينية قد أصبحتا أكثر أهمية.

بدأت عملية إعادة بناء الهيكل، ثم اكتمل الهيكل الثاني في القرن السادس قبل الميلاد، وفق الروايات التقليدية لكن بناء الهيكل لم يكن مجرد مشروع معماري كان محاولة لإعادة بناء المجتمع نفسه فالهيكل كان مركز العبادة والقدس كانت مركز الهوية والعودة إلى المدينة أعادت جزءًا من النظام الذي انهار مع السبي.

عزرا ونحميا

ترتبط هذه المرحلة بشخصيتين شهيرتين عزرا ونحميا.

يرتبط عزرا بالتعليم الديني وتنظيم الشريعة.

أما نحميا فيرتبط بإعادة بناء أسوار القدس وتعزيز المدينة وتعكس الروايات المرتبطة بهما مرحلة إعادة تنظيم للمجتمع، لم تعد فيها المملكة هي أساس الهوية بل أصبحت الشريعة والعبادة والجماعة أكثر أهمية.

مجتمع جديد

بعد السبي لم يعد المجتمع كما كان قبل سقوط القدس اختفت السلالة الملكية المستقلة ولم يعد هناك ملك داودي يحكم من القصر وأصبح للكهنة والكتبة دور أكبر وأصبحت النصوص والقوانين الدينية وسيلة أساسية لتنظيم المجتمع.

ومن هنا بدأت ملامح اليهودية اللاحقة تظهر بصورة أوضح.

اللغة

كانت العبرية لا تزال لغة مهمة، لكنها لم تعد اللغة الوحيدة المستخدمة انتشرت الآرامية على نطاق واسع في الشرق الأدنى خلال العصر الفارسي وكانت الآرامية لغة إدارة وتجارة وتواصل بين جماعات مختلفة ولهذا أصبحت جزءًا مهمًا من الحياة في يهوذا وفي القرون التالية ستصبح الآرامية أكثر حضورًا في النصوص اليهودية.

الشتات

كانت إحدى نتائج السبي التي ستستمر طويلًا هي وجود جماعات يهودية خارج أرض يهوذا لم يعد اليهود شعبًا يعيش في منطقة واحدة فقط كانت هناك جماعات في بابل، ثم ظهرت

لاحقًا جماعات في مصر ومناطق أخرى وهذا الانتشار سيكون بالغ الأهمية عندما يدخل العالم الهلنستي.

الدين بعد السبي

أصبح التوحيد أكثر رسوخًا ولم يعد يهوه يُفهم فقط بوصفه إله إسرائيل المحلي بل أصبح الإله الواحد الخالق والحاكم للكون وتطورت أفكار دينية وأخلاقية أكثر وضوحًا حول العدالة والخطيئة والتوبة والشريعة والهوية الجماعية والعلاقة بين الإنسان والإله.

الكتابة وجمع التقاليد

كان العصر الفارسي مهمًا أيضًا في تطور النصوص الدينية فالتقاليد التي انتقلت شفهيًا وكتابيًا عبر أجيال بدأت تُجمع وتُحرر وتُنظم لكن من الخطأ تصور أن الكتاب المقدس العبري ظهر كاملًا في لحظة واحدة لقد كان نتاج عملية طويلة من التأليف والنقل والتحرير ولهذا نجد داخله طبقات تاريخية وأدبية مختلفة.

كورش في الذاكرة اليهودية

ترك كورش أثرًا استثنائيًا في الذاكرة اليهودية فالنصوص تصفه بصورة إيجابية جدًا، حتى إن سفر إشعياء يستخدم له

تعبيرًا استثنائيًا لكن علينا التمييز بين الذاكرة الدينية وبين الصورة التاريخية الكاملة لكورش كان كورش إمبراطورًا يسعى إلى توسيع دولته وإدارة إمبراطورية ضخمة وسياسته تجاه الشعوب كانت جزءًا من نظام سياسي واسع ومع ذلك، فإن السماح بعودة مجموعات وإعادة بناء بعض المعابد كان بالفعل من سمات الإدارة الفارسية في مناطق مختلفة.

يهوذا بلا ملك

هذه نقطة مهمة جدًا للمرة الأولى منذ نشوء الملكية الإسرائيلية، أصبح المجتمع اليهودي يعيش من دون ملك إسرائيلي أو يهودي مستقل ومع ذلك لم تختفِ هويته.

وهذا يوضح أن الهوية أصبحت تعتمد على عناصر أخرى الدين والشريعة والذاكرة التاريخية واللغة والتقاليد والانتماء إلى الجماعة ومن هنا بدأ يتحول معنى إسرائيل من مملكة إلى هوية أوسع.

نهاية العصر الفارسي

استمر الحكم الفارسي أكثر من قرنين لكن في القرن الرابع قبل الميلاد ظهر شاب مقدوني سيغير تاريخ الشرق الأدنى بأكمله الإسكندر الأكبر وفي عام ٣٣٢ قبل الميلاد دخل بلاد الشام بعد انتصاراته على الفرس وبسقوط الحكم الفارسي في المنطقة،

بدأت مرحلة جديدة مرحلة ستنتقل فيها يهودا إلى العالم الهلنستي وهناك ستظهر أسئلة جديدة

كيف تتعامل الهوية اليهودية مع الثقافة اليونانية؟

هل يمكن الجمع بين الشريعة والتقاليد القديمة والفلسفة والعادات اليونانية؟

وماذا يحدث عندما تحاول سلطة أجنبية فرض نمط ثقافي وديني على مجتمع متمسك بهويته؟

هذه الأسئلة ستقودنا إلى واحدة من أشهر الثورات في تاريخ اليهود ثورة المكابيين.

العصر الهلنستي وثورة المكابيين

لم يكن دخول الإسكندر الأكبر إلى بلاد الشام مجرد انتقال للحكم من الفرس إلى المقدونيين لقد فتح الباب أمام عالم جديد عالم انتشرت فيه اللغة والثقافة اليونانية، وتغيرت فيه المدن والتجارة والإدارة، وأصبحت المجتمعات المحلية مضطرة إلى التعامل مع ثقافة عالمية جديدة وكان المجتمع اليهودي في يهودا واحدًا من هذه المجتمعات.

ثم تابع الإسكندر الأكبر حملاته حتى مصر، وبعدها عاد إلى الشرق ومع وفاته عام ٣٢٣ قبل الميلاد لم تبقَ إمبراطوريته

موحدة وتقاسم قادته الأراضي التي فتحها وهكذا أصبحت يهودا جزءًا من العالم الذي عرف لاحقًا باسم العالم الهلنستي.

البطالمة والسلوقيون

تنافست أسرتان كبيرتان على بلاد الشام البطالمة في مصر والسلوقيون في بلاد الشام وبلاد الرافدين.

وخلال جزء كبير من القرن الثالث قبل الميلاد كانت يهودا تحت نفوذ البطالمة ثم انتقلت السيطرة إلى السلوقيين في أوائل القرن الثاني قبل الميلاد ولم يكن انتقال الحكم مجرد تغيير اسم الحاكم.

فكل قوة كانت تحمل معها مصالحها الإدارية والاقتصادية والسياسية.

انتشار الثقافة اليونانية

بدأت المدن الهلنستية تنتشر في المنطقة وأصبحت اللغة اليونانية لغة مهمة في الإدارة والتجارة والثقافة كما انتشرت أنماط جديدة من العمارة والتعليم والحياة العامة لكن هذا لا يعني أن السكان المحليين تحولوا جميعًا إلى يونانيين بل حدث تفاعل بين الثقافة اليونانية والتقاليد المحلية وهذا التفاعل كان أحيانًا سلميًا، وأحيانًا شديد التوتر.

يهودا بين ثقافتين

وجد المجتمع اليهودي نفسه أمام عالم جديد فمن جهة، كانت الثقافة اليونانية تقدم فرصًا في التجارة والتعليم والإدارة.

ومن جهة أخرى، كان هناك خوف من أن يؤدي التوسع في تبني العادات اليونانية إلى تراجع الشريعة والتقاليد اليهودية ولم يكن اليهود جميعًا متفقين على الموقف نفسه وهذه نقطة مهمة جدًا فالصراع لم يكن ببساطة اليهود ضد اليونانيين بل كان هناك أيضًا يهود مؤيدون للهلنستية ويهود معارضون لها.

مدينة الإسكندرية

وفي مصر نفسها أصبحت الإسكندرية واحدة من أهم مدن العالم الهلنستي وعاش فيها مجتمع يهودي كبير وكان هذا المجتمع منفتحًا بدرجات مختلفة على الثقافة اليونانية.

وفي الإسكندرية تُرجمت النصوص اليهودية إلى اليونانية، ومن أشهر هذه الترجمات لاحقًا الترجمة السبعينية.

وهذا الحدث كان مهمًا جدًا، لأنه جعل النصوص اليهودية متاحة لجمهور واسع يتحدث اليونانية.

الكاهن الأكبر والسياسة

كان الكاهن الأكبر في القدس شخصية دينية وسياسية مهمة ومع تزايد النفوذ الهلنستي، أصبح منصب الكاهن الأكبر مرتبطًا بالصراع على السلطة وكانت النخب اليهودية نفسها منقسمة حول كيفية التعامل مع الحكام الجدد بعضها رأى في التعاون فرصة للحفاظ على النفوذ وبعضها رأى أن التنازل عن التقاليد الدينية يشكل خطرًا على المجتمع.

أنطيوخوس الرابع

بلغ التوتر ذروته في عهد الملك السلوقي أنطيوخوس الرابع أبيفانيس ففي منتصف القرن الثاني قبل الميلاد تدخل بشكل مباشر في شؤون القدس ويهودا وتذكر المصادر أنه فرض إجراءات دينية وسياسية أثارت مقاومة واسعة ومن بينها إجراءات استهدفت بعض الممارسات اليهودية الأساسية، كما تعرض الهيكل للانتهاك والتدنيس وهنا تحولت الأزمة السياسية إلى أزمة دينية.

هل كان أنطيوخوس يحاول القضاء على اليهودية؟

هذه نقطة تحتاج إلى دقة فالصورة التقليدية تصفه باعتباره حاكمًا أراد القضاء على الدين اليهودي لكن المؤرخين يناقشون دوافعه وطبيعة سياساته.

فقد كانت يهودا تعاني أصلًا من انقسامات داخلية، وكان بعض اليهود أنفسهم يتنافسون على منصب الكاهن الأكبر وكان أنطيوخوس يتدخل في هذه الصراعات، كما فعل حكام هلنستيون آخرون في مناطق مختلفة لكن الإجراءات التي مست الطقوس اليهودية أدت إلى رد فعل ديني وشعبي شديد.

متتيا

في بلدة موديعين ظهر رجل يدعى متتيا، وهو كاهن من أسرة حشمونية وبحسب الرواية، رفض المشاركة في الطقوس التي فرضها الحكم السلوقي، وقتل أحد المتعاونين مع السلطة، ثم فر إلى الجبال مع أبنائه وأنصاره ومن هنا بدأت المقاومة المسلحة

يهوذا المكابي

كان أشهر أبناء متتيا يهوذا المكابي وتولى قيادة الثورة بعد وفاة والده وأصبح اسمه مرتبطًا بالثورة كلها، حتى أصبحت الأسرة تعرف لاحقًا باسم المكابيين وقد اعتمدت قواته على أسلوب حرب يناسب طبيعة يهودا الجبلية كانت قوة صغيرة نسبيًا في مواجهة جيش دولة كبيرة لكنها استطاعت تحقيق انتصارات مهمة.

حرب العصابات

لم تكن قوات المكابيين جيشًا نظاميًا ضخمًا اعتمدت بدرجة كبيرة على معرفة المنطقة والهجمات المفاجئة والتحرك السريع وكانت التضاريس الجبلية في يهودا تساعد على هذا النوع من القتال وبمرور الوقت تحولت المقاومة من تمرد محلي إلى قوة سياسية وعسكرية حقيقية.

استعادة القدس

كان الهدف الأكبر هو القدس والهيكل وفي عام ١٦٤ قبل الميلاد تمكن يهوذا المكابي وأتباعه من استعادة السيطرة على الهيكل وتطهيره وإعادة تكريس العبادة فيه وأصبحت ذكرى هذا الحدث أساس عيد الحانوكا/الأنوار في التقليد اليهودي.

وهنا تحولت الثورة من مقاومة عسكرية إلى حدث ديني له أثر طويل جدًا.

هل انتهت الحرب؟ لا.

فاستعادة الهيكل لم تعنِ انتهاء الصراع استمرت المواجهات مع الدولة السلوقية سنوات أخرى لكن قوة الأسرة الحشمونية ازدادت تدريجيًا وبمرور الوقت أصبحت يهودا أكثر استقلالًا.

من الثورة إلى الدولة

وهنا حدث تحول مهم فالمكابيون بدأوا كحركة مقاومة دينية وعسكرية لكن أبناء الأسرة أصبحوا لاحقًا حكامًا وهكذا تحولت الثورة إلى سلالة حاكمة وأصبحت الأسرة تعرف باسم الحشمونيين.

الحشمونيون

تمكن الحشمونيون من توسيع نفوذ يهودا واستولوا على مناطق جديدة وأصبحت لهم قوة عسكرية وسياسية كبيرة لكن نجاحهم خلق مشكلة جديدة لقد بدأت الأسرة التي قامت باسم الدفاع عن الدين تمارس السلطة السياسية مثل الملوك وأصبح الحكم نفسه مصدرًا للصراع.

الكاهن والملك

كان من الصعب الفصل بين السلطة الدينية والسياسية فالحاكم الحشموني كان مرتبطًا بمنصب الكاهن الأكبر، وأحيانًا حمل ألقابًا ملكية وهذا أثار اعتراضات لدى بعض الجماعات اليهودية

فهل يحق للكاهن أن يكون ملكًا؟

وهل يجب أن يكون الحاكم من سلالة داود؟

وهذه الأسئلة ستصبح أكثر حدة في الفترة التالية.

ظهور الأحزاب والتيارات

خلال العصر الحشموني ظهرت أو تبلورت تيارات دينية وسياسية مختلفة ومن أشهرها الصدوقيون والفريسيون ثم لاحقًا جماعات أخرى مثل الأسينيين ولم تكن هذه مجرد مدارس دينية منفصلة كانت لها مواقف مختلفة من الشريعة والهيكل والسلطة السياسية وتفسير النصوص والحياة اليومية والعلاقة مع القوى الأجنبية.

الفريسيون

أعطى الفريسيون أهمية كبيرة للشريعة وتفسيرها، وارتبطوا بتقاليد دينية ستؤثر لاحقًا بصورة كبيرة في تطور اليهودية الربانية وكانوا أكثر ارتباطًا بالمجتمع من الاقتصار على طبقة الكهنة لكن الصورة التي وصلت إلينا عنهم جاءت بدرجة كبيرة من مصادر لاحقة، ولذلك يجب الحذر عند إعادة بناء أفكارهم بالتفصيل.

الصدوقيون

ارتبط الصدوقيون بدرجة أكبر بالطبقة الكهنوتية والنخبة المرتبطة بالهيكل وكان للهيكل مكانة مركزية في تصورهم الديني والسياسي وقد أصبح الصراع بينهم وبين الفريسيين

جزءًا مهمًا من الحياة اليهودية في أواخر العصر الثاني قبل الميلاد وكانوا أكثر تحفظًا في بعض مسائل التفسير الديني.

وتنسب إليهم المصادر القديمة رفض بعض المعتقدات التي قبلها الفريسيون، مثل القيامة من الموت.

الأسينيون

ظهرت أيضًا جماعات دينية أكثر انعزالًا ومن أشهرها الجماعة التي ارتبط اسمها بـ قمران قرب البحر الميت.

اكتُشفت هناك مخطوطات مهمة جدًا، عُرفت باسم مخطوطات البحر الميت وتحتوي هذه المخطوطات على نصوص دينية وقواعد جماعية وتفسيرات ونسخ قديمة من أسفار عبرية.

لكن تحديد هوية الجماعة التي أنتجت جميع هذه المخطوطات ليس أمرًا محسومًا بصورة مطلقة ولهذا يجب الحذر من القول إن كل مخطوطات البحر الميت كتبها الأسينيون دون نقاش.

الجماعات السياسية

لم يكن الصراع دينيًا فقط ظهرت أيضًا جماعات سياسية رفضت بدرجات مختلفة السيطرة الرومانية ومن أبرزها لاحقًا الغيورون، الذين ارتبطوا بالمقاومة المسلحة وكان هناك أفراد وحركات رفضوا دفع الجزية أو التعاون مع روما.

لكن هذه المواقف لم تكن موحدة بين جميع اليهود فبعضهم رأى أن التعاون مع روما هو الطريق الأكثر واقعية للحفاظ على المجتمع.

القدس

كانت القدس قلب المجتمع اليهودي وفي مركزها ارتفع الهيكل الثاني، الذي وسعه هيرودس الكبير بصورة هائلة.

كان الهيكل مكان العبادة والقرابين، ومركزًا دينيًا واقتصاديًا مهمًا وكان الحجاج يتوافدون إليه من مناطق مختلفة، بما فيها مناطق خارج يهودا وهذا جعل القدس مدينة ذات أهمية تتجاوز حدودها الجغرافية.

العالم يتغير مرة أخرى

بينما كانت يهودا تعيش هذه التحولات، كانت قوة جديدة تظهر في الغرب روما بدأت روما تتوسع في شرق المتوسط وفي القرن الأول قبل الميلاد وصلت إلى بلاد الشام ولم تكن يهودا بعيدة عن هذا التوسع وفي النهاية ستصل الجيوش الرومانية إلى القدس لكن هذه المرة لن يكون التحول مجرد تغيير حاكم فالحكم الروماني سيضع المجتمع اليهودي أمام إمبراطورية ضخمة، وسيؤدي التوتر السياسي والديني إلى ثورات متكررة وفي النهاية ستقع واحدة من أشهر الكوارث في تاريخ القدس

تدمير الهيكل الثاني سنة ٧٠ ميلادية وهنا سننتقل من تاريخ الممالك القديمة إلى اليهود في العصر الروماني، هيرودس الكبير، صعود روما، ثم الثورة اليهودية وتدمير القدس.

يهودا تحت الحكم الروماني

مع وصول روما إلى بلاد الشام، دخل تاريخ اليهود مرحلة جديدة لم تعد يهودا تتعامل مع مملكة هلنستية فقط، بل مع قوة توسعية ضخمة تمتلك جيشًا منظمًا وشبكة سياسية واقتصادية واسعة وكانت العلاقة بين اليهود وروما منذ البداية معقدة؛ ففيها تعاون وتحالف من جهة، ومقاومة وصراع من جهة أخرى.

روما تدخل بلاد الشام

في القرن الأول قبل الميلاد توسعت روما شرقًا بعد صراعاتها مع الممالك الهلنستية وفي عام ٦٣ قبل الميلاد وصل القائد الروماني بومبيوس إلى القدس وكانت يهودا آنذاك تعيش صراعًا على السلطة بين أفراد الأسرة الحشمونية.

وتدخل بومبيوس في هذا الصراع، وانتهى الأمر بفرض النفوذ الروماني على يهودا وهكذا بدأت مرحلة جديدة.

هيرودس الكبير

بعد سنوات من الاضطرابات ظهر رجل سيصبح من أشهر حكام يهودا هيرودس الكبير.

لم يكن هيرودس من الأسرة الحشمونية لكنه كان متزوجاً منها، لكنه استطاع الوصول إلى الحكم بدعم روماني وفي عام ٣٧ قبل الميلاد أصبح ملكًا على يهودا وكان حكمه مزيجًا غريبًا من القوة والطموح والخوف فقد كان حاكمًا شديد القسوة تجاه خصومه، لكنه في الوقت نفسه كان من أعظم البنّائين في تاريخ المنطقة.

أعاد هيرودس تشكيل القدس بصورة ضخمة ومن أعظم مشاريعه توسعة الهيكل الثاني فقد وسّع الساحة المحيطة بالهيكل وأقام منشآت ضخمة وكان مشروعه يتجاوز الجانب الديني فهو أراد أن يجعل القدس مدينة عظيمة تليق بمملكة مرتبطة بروما كما بنى القصور والحصون والمدن والموانئ.

ومن أبرز مشروعاته مدينة قيصرية البحرية على الساحل أنشأ هيرودس ميناءً ضخمًا ومباني عامة ومعابد ومنشآت إدارية.

وأصبحت المدينة مركزًا مهمًا في المنطقة وهذا يكشف مدى تأثر يهودا بالعالم الهلنستي والروماني.

فحتى حاكم يهودي مرتبط بالهوية الدينية المحلية كان يستخدم العمارة والأساليب السياسية والثقافية المنتشرة في العالم الروماني.

ومن أشهر منشآت هيرودس أيضًا حصن مسادا بُني فوق هضبة صخرية شديدة الارتفاع قرب البحر الميت وكان الموقع يتمتع بمزايا دفاعية هائلة وقد استخدمه هيرودس قصرًا وحصنًا في الوقت نفسه وبعد عقود سيصبح مسرحًا لواحدة من أشهر حلقات الثورة اليهودية ضد روما.

لم يكن هيرودس محبوبًا لدى الجميع فأصله وعلاقته بروما، وقسوته على خصومه، وفرضه للضرائب، كلها جعلته موضع شك لدى قطاعات من السكان كما أن مشروعاته الهائلة كانت تحتاج إلى أموال وعمال لكن المفارقة أن بعض أعظم الآثار التي بقيت من يهودا القديمة ارتبطت بعصره.

توفي هيرودس عام ٤ قبل الميلاد تقريبًا وقُسمت أراضيه بين أبنائه لكن الحكم لم يستقر طويلًا بالشكل نفسه فبعض المناطق بقيت تحت حكم أفراد من الأسرة الهيرودية، بينما تحولت يهودا نفسها لاحقًا إلى إدارة رومانية مباشرة.

الوالي الروماني

أصبح لروما وجود إداري مباشر في يهودا وكان من أشهر الولاة الرومان بيلاطس البنطي حكم المنطقة في القرن الأول الميلادي وتذكر المصادر القديمة والتقاليد المسيحية اسمه بسبب ارتباطه بمحاكمة يسوع لكن وجوده التاريخي لا يعتمد على الروايات المسيحية وحدها فقد عُثر على نقش حجري من قيصرية يحمل اسم بيلاطس، وهو دليل أثري مباشر على وجوده ومنصبه.

كانت العلاقة بين السكان والسلطة الرومانية شديدة الحساسية فاليهود كانوا يملكون تقاليد دينية وقانونية خاصة وكانت الضرائب والتدخلات السياسية والوجود العسكري الروماني أسبابًا متكررة للاحتقان وفي الوقت نفسه لم يكن المجتمع اليهودي موحدًا في موقفه من روما فبعض النخب تعاونت معها وبعض الجماعات عارضتها وبعض الناس فضلوا الانتظار.

بينما ظهرت جماعات أكثر تشددًا دعت إلى المقاومة.

التيارات الدينية

في القرن الأول الميلادي كانت الساحة اليهودية تضم تيارات متعددة كان هناك الفريسيون والصدوقيون، إلى جانب جماعات أخرى وكانت هناك أيضًا حركات تنتظر تدخلًا إلهيًا أو ظهور

قائد مخلّص وهذه الأجواء الدينية والسياسية ساعدت على ظهور حركات جديدة ومن بينها الحركة التي نشأت حول يسوع الناصري.

الثورة الكبرى

استمر التوتر مع روما حتى انفجر عام ٦٦ ميلادية اندلعت الثورة اليهودية الكبرى ضد الحكم الروماني وفي بدايتها حقق الثوار نجاحات مهمة وطُردت القوات الرومانية من بعض المناطق لكن روما لم تكن مستعدة لقبول فقدان السيطرة على يهودا أُرسل الجيش الروماني بقيادة فسبازيان ثم ابنه تيطس.

حصار القدس

تجمع الجيش الروماني حول القدس وكانت المدينة مليئة بالثوار، لكنها كانت تعاني أيضًا من انقسامات داخلية وهذا كان من أخطر جوانب الثورة فبينما كان الرومان يقتربون، كان اليهود أنفسهم منقسمين إلى جماعات متنافسة ومع استمرار الحصار أصبح الوضع داخل المدينة كارثيًا في عام ٧٠ ميلادية اقتحمت القوات الرومانية القدس وأُحرق الهيكل الثاني ودُمّر وكان ذلك من أعظم الأحداث في التاريخ اليهودي فالهيكل لم يكن مجرد معبد كان مركز الحياة الدينية والاقتصادية والرمزية

وبتدميره انتهى النظام الديني الذي كان يعتمد على القرابين والكهنوت والهيكل بوصفه المركز.

احتفل الرومان بانتصارهم وفي روما أقيم لاحقًا قوس تيطس، الذي يصور مشاهد من الغنائم التي أُخذت من القدس، ومن بينها أدوات مرتبطة بالهيكل ومن أشهر ما يظهر في النقوش المنارة السباعية وهذا الأثر يقدم لنا شهادة بصرية نادرة على ما حدث بعد سقوط القدس.

لم تنتهِ المقاومة مباشرة استمرت مجموعات يهودية في القتال في أماكن مختلفة وكانت آخر المراحل الشهيرة في مسادا.

حاصر الرومان الموقع، وأقاموا منحدرًا ضخمًا للوصول إلى القلعة وانتهى الحصار في أوائل السبعينيات الميلادية وأصبحت مسادا رمزًا مهمًا في الذاكرة اليهودية لكن تفاصيل النهاية، وخاصة الرواية المتعلقة بالانتحار الجماعي، تعتمد أساسًا على المؤرخ يوسيفوس، ولذلك يناقش الباحثون تفاصيلها وكيفية تقييمها.

ماذا حدث بعد تدمير الهيكل؟ هنا بدأت مرحلة جديدة تمامًا.

لم يعد هناك هيكل ولا توجد دولة يهودية مستقلة والكهنوت فقد مركزه السابق وكان على المجتمع اليهودي أن يعيد تنظيم حياته الدينية من جديد وهنا برز دور علماء الشريعة والتقاليد التي

ستتطور لاحقًا إلى اليهودية الربانية أصبحت دراسة النصوص والصلاة والطقوس المنزلية والمجتمع المحلي أكثر أهمية.

وهكذا تحولت اليهودية من دين يتمحور حول الهيكل والقرابين إلى تقليد قادر على الاستمرار من دون الهيكل.

الثورة الثانية

لكن الصراع مع روما لم ينتهِ في القرن الثاني الميلادي اندلعت ثورة بار كوخبا ضد الإمبراطور هادريان وكانت واحدة من أكبر الانتفاضات اليهودية ضد روما وقد تمكن الثوار في البداية من السيطرة على مناطق واسعة لكن الرومان أرسلوا قوات كبيرة لقمع الثورة وانتهت الثورة بهزيمة قاسية بعد بار كوخبا أصبحت أوضاع اليهود في يهودا أكثر صعوبة وتغيرت مكانة القدس والمنطقة وانتقلت مراكز الحياة اليهودية تدريجيًا إلى مناطق أخرى، خصوصًا الجليل وهناك تطورت مؤسسات دينية وفكرية مهمة.

من الممالك إلى الشتات

وهكذا قطعنا رحلة طويلة جدًا من الجماعات الإسرائيلية القديمة في كنعان، إلى المملكة الموحدة، إلى انقسام إسرائيل ويهوذا، ثم سقوط إسرائيل أمام آشور، وسقوط يهوذا أمام بابل، والعودة

في العصر الفارسي، والعصر الهلنستي، والحشمونيين، ثم الحكم الروماني، وأخيرًا تدمير الهيكل والثورات ضد روما.

والشيء الأهم أن سقوط الممالك لم يؤدِّ إلى اختفاء الشعب أو هويته بل تحولت الهوية من هوية مملكة إلى هوية دينية وثقافية عابرة للحدود وهذه هي النقطة التي تجعل تاريخ العبرانيين والإسرائيليين مختلفًا عن مجرد تاريخ سلالة حاكمة.

إنه تاريخ شعب تغيّرت دولته، وتغيّرت أرضه السياسية، وتغيّرت مؤسساته، لكنه حافظ على تقاليد وهوية استمرت في عصور لاحقة.

من يهودا إلى سوريا فلسطين

في القرن الثاني الميلادي ارتبطت إعادة تنظيم المنطقة الرومانية باسم سوريا فلسطين.

ويرتبط ذلك بسياسات الإمبراطور هادريان بعد الثورة وكانت هذه المرحلة جزءًا من تحول أوسع في هوية المنطقة تحت الحكم الروماني لكن السكان والثقافات واللغات القديمة لم تختفِ فبلاد الشام بقيت فسيفساء بشرية وثقافية معقدة.

من الهيكل إلى الشريعة

كان الهيكل في العصر القديم مركزًا للعبادة والقرابين والكهنوت وبعد تدميره لم يعد بالإمكان استمرار هذا النظام بالشكل نفسه ولهذا اكتسبت دراسة الشريعة وتفسيرها أهمية متزايدة وأصبحت الصلاة ودراسة النصوص والالتزام بالفرائض وسائل أساسية للحفاظ على العلاقة بالدين وهنا حدث تحول عميق لم تعد الهوية مرتبطة بوجود دولة مستقلة أو ملك أو معبد بل أصبحت قادرة على الاستمرار داخل الجماعة نفسها، أينما وجدت.

علماء الشريعة

برز علماء عرفوا لاحقًا باسم الحاخامات، وأصبح لهم دور متزايد في تنظيم الحياة الدينية وكانوا يناقشون مسائل تتعلق بالعبادة والزواج والطعام والسبت والمعاملات والقوانين لم تكن هذه المناقشات مجرد مسائل دينية نظرية بل كانت محاولة للإجابة عن سؤال عملي:

كيف يعيش المجتمع وفق تقاليده في عالم لم يعد فيه الهيكل قائمًا؟

المشناه

مع مرور الوقت جُمعت تقاليد شفهية وقانونية في عمل أصبح يعرف باسم المِشناه، ويُنسب جمعه إلى يهودا هناسي في أواخر القرن الثاني الميلادي.

وتضم المشناه أبوابًا واسعة تتناول الزراعة، والأعياد، والزواج، والقوانين المدنية، والذبائح، والطهارة وغيرها.

وتكشف لنا عن مجتمع يحاول إعادة تنظيم حياته وفق الشريعة في ظروف جديدة.

التلمود

لم تتوقف المناقشات عند المشناه ففي القرون التالية ظهرت نقاشات وتعليقات واسعة عليها في مراكز يهودية مختلفة، ونتج عن ذلك ما نعرفه باسم التلمود وهناك تقليدان تلموديان رئيسيان التلمود الفلسطيني، الذي تشكل في أرض إسرائيل والتلمود البابلي، الذي أصبح لاحقًا الأكثر تأثيرًا في اليهودية الربانية وهنا تظهر أهمية بابل مرة أخرى.

فالمنفى الذي بدأ في القرن السادس قبل الميلاد ترك وراءه مجتمعًا يهوديًا قويًا، وسيصبح هذا المجتمع بعد قرون أحد أهم مراكز الفكر اليهودي.

الطهارة والنجاسة عند العبرانيين

احتلت الطهارة والنجاسة مكانة مهمة في الحياة الدينية عند العبرانيين، ووردت أحكامها بصورة مفصلة خصوصًا في سفر اللاويين وسفر العدد. والمقصود بالطهارة والنجاسة في هذا السياق ليس النظافة الشخصية بالمعنى الحديث، ولا يعني وصف الإنسان بأنه صالح أو شرير، وإنما يشير إلى حالة طقسية تحدد ما إذا كان الشخص يستطيع الاقتراب من الأماكن المقدسة والمشاركة في بعض الطقوس أم يحتاج أولًا إلى التطهر.

وكانت النجاسة الطقسية يمكن أن تنتج عن أسباب كثيرة، بعضها مرتبط بالحياة اليومية والطبيعة البشرية. فمن أبرز أسبابها ملامسة جثة إنسان ميت، أو وجود إفرازات جسدية معينة، أو الحيض والولادة، أو الإصابة ببعض الأمراض الجلدية التي تصفها الشريعة، وكذلك ملامسة بعض الأشياء أو الأشخاص الذين أصبحوا في حالة نجاسة. وكانت بعض الحيوانات والكائنات تُعد طاهرة، بينما عُدت حيوانات أخرى نجسة ولا يجوز أكلها.

ومن أشهر الحالات الحيض؛ فالمرأة تكون في حالة نجاسة طقسية خلال فترة الحيض، وتمتد بعض الأحكام المتعلقة بها إلى الأشياء التي تلامسها. أما الولادة فلها أحكام تطهير خاصة،

وتختلف مدة التطهير بحسب جنس المولود وفقًا لما يورده سفر اللاويين، ثم تقدم المرأة قربانًا بعد انتهاء المدة المحددة.

وكان موت الإنسان من أقوى مصادر النجاسة الطقسية؛ فمن لمس جثة أو دخل إلى مكان توجد فيه جثة كان يدخل في حالة نجاسة، وتوجد أحكام خاصة لتطهيره. ولهذا كان التعامل مع الموتى يرتبط بإجراءات طقسية، ولم يكن الأمر مجرد مسألة نظافة.

كذلك تناولت الشريعة الإفرازات الجسدية عند الرجال والنساء، ووضعت لها أحكامًا تتعلق بالغسل وانتظار مدة معينة وتطهير الأشياء التي لامست الشخص. وهذه الأحكام لا تعني أن الوظائف الجسدية نفسها كانت تُعد خطيئة، وإنما كانت تجعل الشخص في حالة طقسية مؤقتة تتطلب التطهر قبل العودة إلى بعض أشكال المشاركة الدينية.

أما الأمراض الجلدية، فكانت لها أحكام أكثر تعقيدًا. وكان الكاهن يفحص الحالة ويقرر ما إذا كان الشخص طاهرًا أم نجسًا، وقد يُعزل الشخص فترة من الزمن إذا ظهرت عليه علامات معينة، ثم يُعاد فحصه. وإذا زالت العلامات، كانت هناك طقوس لإعلان طهارته وإعادته إلى المجتمع والعبادة.

وشملت أحكام الطهارة أيضًا الطعام والحيوانات. فقد قسمت الشريعة الحيوانات إلى طاهرة ونجسة، وسمحت بأكل أنواع

محددة، بينما حرمت أكل أنواع أخرى، ومن أشهرها الخنزير. كما ارتبطت النجاسة أحيانًا بملامسة جثث الحيوانات أو بعض الكائنات التي عُدت نجسة.

ولم تكن النجاسة دائمًا حالة دائمة؛ ففي كثير من الحالات كان الإنسان يستطيع استعادة الطهارة من خلال الاغتسال بالماء، وانتظار المدة المحددة، وغسل الملابس أو الأشياء التي تلوثت، وفي بعض الحالات تقديم قربان أو إجراء طقوس خاصة يشرف عليها الكاهن. وكانت طريقة التطهير تختلف بحسب سبب النجاسة ومن المهم هنا التمييز بين النجاسة الطقسية والخطيئة الأخلاقية. فقد يكون الإنسان «نجسًا» بسبب أمر طبيعي تمامًا، مثل الحيض أو لمس ميت، من دون أن يكون قد ارتكب ذنبًا. وبمجرد إتمام إجراءات التطهير يصبح طاهرًا من الناحية الطقسية. أما الخطايا الأخلاقية، مثل القتل والسرقة والزنا والظلم، فلها أحكام أخرى ولا تُختزل في مجرد مفهوم النجاسة الطقسية وهكذا كانت منظومة الطهارة والنجاسة جزءًا من تصور العبرانيين لعلاقتهم بالمقدس؛ فقد كان الاقتراب من المعبد والمقدسات يتطلب حالة من الطهارة، وكان الكهنة يقومون بدور أساسي في التحقق من بعض حالات الطهارة والنجاسة، ولا سيما الأمراض الجلدية وبعض الحالات المرتبطة بالعبادة

الزواج

ففي الزواج، لم يكن الزواج مجرد ارتباط بين رجل وامرأة، بل أصبح له إطار قانوني يحدد حقوق الطرفين وواجباتهما. ومن أهم ذلك الكتوبة (القائمة)، وهي وثيقة زواج تحدد التزامات مالية تجاه الزوجة، ومنها المبلغ الذي تستحقه عند انتهاء الزواج بالطلاق أو وفاة الزوج. كما تناولت الأحكام نفقة الزوجة وملابسها وحقوقها الزوجية، وما يحدث لأموالها وممتلكاتها، وكيفية التعامل مع المهر الذي يأتي به أهلها. وتظهر في المِشناه مسائل دقيقة، مثل حق الزوج في بعض عائدات أموال زوجته، وحقها في أموال أخرى، ومسؤوليات الزوج تجاه زوجته وأولاده.

أما الطلاق، فلم يكن مجرد إعلان أن الزوجين لم يعودا معًا، بل ارتبط بإجراء قانوني محدد، أهم عناصره وثيقة الطلاق جِت. كما ناقش العلماء الحالات التي يمكن أن تؤدي إلى الطلاق، وما يترتب عليه من حقوق مالية. وفي بعض الحالات التي كان الزوج ملزمًا فيها بإنهاء الزواج، كان عليه أيضًا أن يؤدي للزوجة ما تستحقه بموجب الكتوبة. وفي حالات أخرى ناقشت المِشناه ظروفًا يمكن أن تفقد فيها الزوجة حقها في مبلغ الكتوبة، وهو ما يوضح أن الطلاق كان مرتبطًا أيضًا بمسائل مالية وقانونية دقيقة.

وفي المعاملات المالة، دخلت الشريعة في أسئلة أكثر قربًا من الحياة اليومية ماذا يحدث إذا أقرض شخص مالًا لآخر؟ من يتحمل المسؤولية إذا استأجر شخص شيئًا ثم تلف؟ متى تصبح السلعة أو الملكية في مسؤولية المشتري؟ وماذا يحدث إذا اختلف شخصان على ملكية شيء أو على دين؟ وتناقش نصوص مثل بابا متسيا مسائل المسؤولية عن الأشياء المستعارة أو المستأجرة، بينما تتناول أبواب أخرى الملكية والعقود والشراكة والإرث.

أما الأضرار والقضاء، فلم يقتصر الأمر على تحديد أن الشخص المخطئ يجب أن يعاقب، بل ناقشت الشريعة مقدار التعويض عن الضرر نفسه. فهناك، مثلًا، أحكام تتناول الشخص الذي يصيب آخر بجروح، وتحدد أنواع التعويض التي يمكن أن تدخل في الحكم، ومنها التعويض عن الضرر الجسدي والألم وتكاليف العلاج وفقدان القدرة على العمل والإهانة. كما تناولت النصوص مسؤولية الشخص عن الأضرار التي تسببها ممتلكاته أو حيواناته أو النار التي يشعلها.

وفي السبت، تحولت قاعدة الامتناع عن العمل إلى منظومة أكثر تفصيلًا؛ فالتقليد الحاخامي صنف الأعمال المحظورة إلى تسع وثلاثين فئة رئيسية، شملت الزراعة والحصاد، وإعداد الطعام، والغزل والنسيج، والكتابة، والبناء، وإشعال النار، وغيرها. ومن هنا ظهرت أسئلة تطبيقية كثيرة ما العمل الذي يدخل في

إحدى هذه الفئات؟ ومتى يكون الفعل ممنوعًا؟ وما الحالات التي يجوز فيها مخالفة الحكم، ولا سيما عندما تكون حياة الإنسان معرضة للخطر؟

السبت والطبخ والطعام

كان إعداد الطعام نفسه موضوعًا للنقاش. فطبخ الطعام في السبت يدخل ضمن الأعمال المحظورة، ولذلك كان إعداد الطعام يتم مسبقًا. وتناقش المصادر الحاخامية حالات أكثر دقة فإذا كان طعام معين قد طُهي أو سُخّن قبل السبت، فقد يجوز وضعه في الماء الساخن يوم السبت في بعض الحالات، بينما لا يجوز لطعام آخر لم يُطهَ مسبقًا أن يُغمر في الماء الساخن؛ بل إن بعض الأطعمة، مثل السمك المملح القديم المذكور في التلمود، كان مجرد غسله بالماء الساخن يُعد إتمامًا لعملية طبخه، ولذلك عُدّ ذلك من المسائل التي تحتاج إلى حكم وتفسير.

وهذا يوضح أن أحكام السبت لم تكن مجرد قاعدة عامة تقول لا تعملوا، بل دخلت إلى تفاصيل المطبخ نفسه متى يُطهى الطعام؟ وهل يمكن تسخينه؟ وهل أصبح الطعام مطهوًا بما يكفي قبل حلول السبت؟ وهل يؤدي إجراء بسيط مثل غمره في الماء الساخن إلى إتمام طبخه؟ ومن هذه الأسئلة اليومية نشأت المناقشات التفصيلية حول تطبيق الحكم.

أما الطعام بصورة أوسع، فقد تناولت الشريعة مسائل تتعلق بما يجوز أكله وكيفية إعداد بعض الأطعمة. ومن القضايا التي تظهر في المصادر مسألة الطعام غير المعشّر، أي الطعام الذي لم تُفصل منه العُشور المطلوبة، في الشريعة الزراعية اليهودية القديمة، كان يُطلب من صاحب المحصول أن يفصل أجزاء معينة من المحصول قبل أن يأكل منه، وتُعطى هذه الأجزاء وفق نظام محدد للكهنة واللاويين وغيرهم.

ومنها مثلًا العُشر الأول يُفصل منه جزء مقداره عُشر المحصول ويُعطى للاويين. ثم كانت هناك ترتيبات أخرى لأجزاء من المحصول فلو عند شخص كمية من القمح أو الحبوب، ثم طحنها وصنع منها طعامًا قبل أن يستوفي هذه الفصول المطلوبة، فهذا يُسمى في المصادر طعامًا غير مُعشّر، وكان لا يجوز التعامل معه كطعام عادي مستوفٍ للأحكام

وكذلك فصل جزء من العجين المعروف باسم الحَلّة أي تأخذ المرأة قطعة من العجين و تفصلها عن بقية العجين هذه القطة هي الحلّة و في التقليد القديم كانت التقدمة تعطى للكاهن أما في الممارسة اللاحقة فقد أصبحت تفصل ثم تحرق وفق الأحكام المتبعة. وهذه المسائل لم تكن مجرد قواعد نظرية، بل كانت تدخل في إعداد الطعام داخل البيت، ولذلك أصبحت جزءًا من الحياة الدينية اليومية. وتذكر المِشناه، مثلًا، حالة المرأة التي

تُطعم زوجها طعامًا غير معشّر باعتبارها من الحالات التي تدخل في أحكام الأسرة والالتزامات الزوجية.

حالات الطلاق وفقدان حق الكتوبة

أما الطلاق، فالمصادر الحاخامية لا تتعامل معه باعتباره مجرد انفصال بين الزوجين، بل تربطه بإجراءات وحقوق مالية محددة. ومن أهمها الكتوبة، وهي وثيقة الزواج التي تحدد حقوقًا مالية للزوجة، ولذلك ناقشت المِشناه الحالات التي تحصل فيها المرأة على الكتوبة عند انتهاء الزواج، والحالات التي يمكن أن تخرج فيها من الزواج من دون الحصول على مبلغ الكتوبة.

وتذكر المِشناه في كتوبوت مجموعة محددة من الحالات. فمن بينها أن تُطعم المرأة زوجها طعامًا غير معشّر، أو أن تقيم معه علاقة زوجية وهي في حالة الحيض وفق الحكم الديني، أو ألا تفصل الحَلّة من العجين عندما يكون ذلك واجبًا، أو أن تنذر نذرًا ثم لا تفي به. وتضع المِشناه أيضًا مجموعة أخرى تحت ما تسميه «أحكام النساء»، ومنها أن تخرج المرأة وشعرها مكشوف في الموضع الذي اعتُبر فيه ذلك مخالفًا للعرف الديني، أو أن تغزل في السوق، أو أن تتحدث مع الرجال على نحو اعتُبر مخالفًا للمعايير الاجتماعية التي يصفها النص. ويضيف بعض العلماء في النص حالات أخرى، مثل أن تسبّ والدي

زوجها أمامه أو أن تكون شديدة رفع الصوت في البيت بحيث يسمعها جيرانها.

لكن المهم جدًا هنا أن هذه الأحكام ليست ببساطة «أي امرأة تفعل هذا تُطلّق فورًا وتخسر حقوقها». فالنص يناقشها ضمن نظام قانوني له شروط وإجراءات، وتذكر الشروح أن ثبوت بعض هذه الحالات كان مرتبطًا بالشهادة والتحذير المسبق.

وفي المقابل، تناقش المِشناه أيضًا حالات يكون فيها الزوج نفسه سببًا في استحالة استمرار الحياة الزوجية. فإذا منع زوجته بنذر من الانتفاع بما تحتاج إليه منه، كأن يحرمها من الطعام أو من منفعة أساسية يلتزم بها تجاهها، فقد يُمنح فترة محددة للتراجع عن نذره؛ فإذا استمر المنع مدة أطول، يُلزم بالطلاق ودفع الكتوبة لها. وتذكر المِشناه أمثلة أخرى، مثل أن يمنع زوجته من تناول نوع من الطعام أو من التزين مدة طويلة، فتتحول المسألة إلى سبب يستوجب إنهاء الزواج مع إعطائها حقها المالي.

هل اختفى يهود يهوذا؟ لا.

استمر وجود اليهود في أرض إسرائيل وعاشوا في القدس والجليل ومناطق أخرى، رغم التغيرات السياسية الكبرى لكن مركز الثقل لم يعد واحدًا أصبحت هناك مراكز يهودية متعددة

في أرض إسرائيل وفي بابل ثم في مصر وشمال أفريقيا ومناطق أخرى من العالم القديم.

وهكذا أصبحت الهوية اليهودية عابرة للحدود بصورة واضحة.

اللغة والهوية

استمرت العبرية بوصفها لغة دينية وأدبية، بينما بقيت الآرامية مستخدمة على نطاق واسع في الحياة اليومية وفي أجزاء من الأدب الديني ثم أصبحت اليونانية واللاتينية مهمتين أيضًا بحسب المنطقة وهذا يوضح أن الهوية الثقافية لا تحتاج إلى لغة واحدة فقط يمكن لشعب أن يحتفظ بتراثه الديني بينما يستخدم لغة مختلفة في التجارة أو الإدارة أو الحياة اليومية.

اليهودية ليست كتلة واحدة

من المهم ألا نتعامل مع اليهود في العصور القديمة وكأنهم كانوا جماعة متطابقة في كل شيء فقد اختلفوا في تفسير الشريعة واختلفوا في الممارسات واختلفوا في علاقتهم بالسلطة الأجنبية وظهرت جماعات وتيارات مختلفة عبر القرون بعضها اختفى وبعضها تطور إلى تقاليد استمرت والتيار الرباني أصبح في النهاية الأكثر تأثيرًا في اليهودية اللاحقة.

ماذا بقي من إسرائيل القديمة؟

بقي الكثير بقيت اللغة والتقاليد بقيت القصص التاريخية بقيت أسماء المدن بقيت النصوص بقيت الطقوس وبقيت الذاكرة الجماعية للمملكة والهيكل والسبي والعودة لكنها لم تبقَ جامدة كل جيل أعاد تفسير الماضي بما يناسب ظروفه.

وهكذا أصبح الماضي جزءًا من بناء الهوية الجديدة.

الأسماء الشخصية ومعانيها

كانت الأسماء الشخصية في المجتمع الإسرائيلي القديم أكثر من مجرد وسيلة لتمييز شخص عن آخر؛ فكثير من الأسماء العبرية كان يحمل معنى واضحًا، أو يتكوّن من جذر لغوي يدل على صفة أو فعل أو علاقة، وبعضها ارتبط باسم الإله إيل أو بالاسم الإلهي يهوه. ولذلك يمكن للأسماء أن تعطينا لمحة عن اللغة والثقافة والمفاهيم الدينية التي كانت حاضرة في المجتمع.

ومن أبرز الأسماء إسرائيل، وهو الاسم الذي ارتبط بيعقوب في الرواية التوراتية، ثم أصبح اسمًا للجماعة والشعب، ولاحقًا اسمًا للمملكة الشمالية. لكن معنى الاسم نفسه ليس محسومًا بصورة واحدة بين الباحثين. فالتفسير الوارد في سفر التكوين يربطه بالفعل الذي يفيد الصراع أو المجاهدة، ولذلك يُفهم تقليديًا بمعنى قريب من الذي جاهد مع الله أو صارع الله.

أما يهوذا، بالعبرية «يِهُوداه»، فقد ارتبط اسمه في الرواية التوراتية بالفعل حَمِدَ أو شَكَرَ، إذ تفسر ليئة أو ليا و هي إحدى زوجات النبي يعقوب في الرواية التوراتية و هي ابنة لابان و أخت راحيل تسمية ابنها بهذا الاسم بقولها إنها ستحمد الرب. وأصبح الاسم لاحقًا اسم إحدى القبائل، ثم اسم المملكة الجنوبية التي قامت حول القدس، ومنها جاءت تسمية اليهودي في مراحل لاحقة من التاريخ. وهنا نرى كيف يمكن لاسم شخص واحد أن ينتقل من مستوى الاسم الشخصي إلى اسم قبيلة، ثم إلى اسم مملكة، ثم إلى تسمية جماعة بشرية أوسع.

ومن الأسماء الملكية شاول، بالعبرية شاؤول، وهو اسم مرتبط بالفعل العبري الذي يعني طُلِبَ أو سُئِلَ عنه، ويظهر في تقاليد تفسير الاسم بمعنى المطلوب أو المستدعى. وهذا المعنى ينسجم مع الطريقة التي تُفسَّر بها بعض الأسماء في النصوص القديمة، حيث يُربط اسم الطفل بظرف ولادته أو بحدث وقع حوله.

أما داود، بالعبرية دافيد، فيرتبط عادةً بالجذر الذي يدل على المحبوب أو العزيز، ولذلك يُفهم الاسم عادةً بمعنى المحبوب. والمهم هنا أن الاسم لا يحمل تركيبًا دينيًا ظاهرًا مثل الأسماء التي تحتوي على إيل أو أحد أشكال الاسم الإلهي، بل يبدو اسمًا ذا معنى إنساني مباشر يتعلق بالمحبة والمودة.

أما سليمان، بالعبرية شْلُومو، فيرتبط بجذر ش-ل-م المرتبط بكلمات مثل السلام والكمال والتمام، ولذلك يرتبط اسمه بمعنى السلام أو المسالم. وتربط الرواية التوراتية بين اسم سليمان وفكرة السلام، في حين أن اسمه الآخر يديديا يحمل معنى محبوب الرب.

ولا تقتصر هذه الظاهرة على أسماء الملوك. فهناك أسماء كثيرة تكشف عن الطريقة التي كان الناس ينظرون بها إلى حياتهم ومعتقداتهم. فمثلًا، إلياهو (إيليا) يتضمن اسم «إيل» مع صيغة مرتبطة بالإله يهوه، ويُفهم بمعنى «إلهي هو يهوه»، بينما يوناتان يتضمن عنصرًا إلهيًا مع الفعل «أعطى»، فيحمل معنى قريبًا من يهوه أعطى. ودانيال يتكون من دان المرتبط بالقضاء أو الحكم وإيل، فيحمل معنى الله هو قاضيَّ. هذه التركيبات توضح انتشار ما يسمى الأسماء الثيُوفورية، أي الأسماء التي تتضمن عنصرًا من اسم الإله أو تشير إليه.

ومن الأسماء التي تكشف عن معانٍ مرتبطة بالحياة اليومية أيضًا يوسف، الذي يرتبط في الرواية التوراتية بالفعل يزيد أو يضيف، وصموئيل الذي يرتبط بتفسير الله سمع في قصة ولادته، ويشوع الذي يرتبط بمعنى الخلاص المنسوب إلى يهوه. وهكذا لم تكن تسمية الطفل دائمًا اعتباطية؛ فقد تحمل الاسمَ أمنيةً أو شكرًا أو تذكيرًا بحدث أو تعبيرًا عن علاقة الإنسان بإلهه.

الموت والدفن عند العبرانيين والإسرائيليين

كان الموت جزءًا حاضرًا من الحياة الاجتماعية، ولم يكن دفن الميت مجرد التخلص من الجسد، بل كان مرتبطًا بالأسرة والمكان والذاكرة. وتكشف القبور التي عُثر عليها في مناطق يهوذا وإسرائيل عن عادات دفن تطورت عبر الزمن، كما تكشف عن مكانة الأسرة والروابط بين الأجيال.

القبر بوصفه بيتًا للعائلة

من أبرز أنواع القبور في يهوذا خلال العصر الحديدي ما يعرف بـ قبر المصاطب أو القبر ذي المقاعد. كان القبر يُنحت في الصخر، وغالبًا يتكون من حجرة رئيسية تتصل بها حجرات أخرى، وتوجد على جوانبها مصاطب حجرية يُوضع عليها جسد الميت. وقد ظهر هذا النوع بصورة واضحة في العصر الحديدي الثاني، وانتشر خصوصًا في يهوذا والقدس.

ولم تكن هذه القبور مخصصة لشخص واحد بالضرورة، بل استُخدمت عبر أجيال متعاقبة من العائلة نفسها. وبعد أن يتحلل الجسد، كانت العظام تُجمع وتُنقل إلى موضع مخصص داخل القبر، مما يتيح استخدام المصطبة لدفن شخص آخر. وهكذا أصبح القبر مكانًا يجمع أفراد الأسرة الموتى عبر الزمن، وليس مجرد موضع دفن مؤقت لشخص واحد.

وهذه النقطة مهمة جدًا؛ لأن علماء الآثار لاحظوا أن تصميم بعض القبور يشبه إلى حد كبير البيت الإسرائيلي ذي الغرف الأربع، حتى إن بعض الدراسات ترى أن شكل القبر قد يعكس تصورًا له باعتباره نوعًا من المسكن الدائم للموتى.

ماذا كانوا يضعون مع الميت؟

لم تكن القبور خالية من الأشياء. فقد عثر علماء الآثار على أوانٍ فخارية، وأوعية للطعام والشراب، ومصابيح زيتية، وقطع حلي، وأختام، وأدوات شخصية، وأحيانًا أسلحة وأدوات أخرى. وفي بعض القبور وُجدت أوعية صغيرة للعطور أو الزيوت.

لكن وجود هذه الأشياء لا يعني بالضرورة أن الإسرائيليين كانوا يعتقدون أن الميت سيستخدمها بالطريقة نفسها التي يستخدمها بها الإنسان الحي. فالباحثون يحذرون من تفسير كل قطعة وُجدت في القبر على أنها دليل مباشر على عقيدة دينية محددة؛ فقد تكون بعض الأشياء مرتبطة بالعادات الجنائزية أو بمكانة المتوفى أو بممارسات تذكارية. ولذلك لا نستطيع أن نقول ببساطة كانوا يؤمنون بأن الميت يحتاج هذه الأشياء في العالم الآخر. الأدلة أكثر تعقيدًا من ذلك.

الدفن الأول ثم جمع العظام

من أكثر الجوانب إثارة للاهتمام في طريقة الدفن أن عملية الدفن لم تكن بالضرورة تنتهي بوضع الجسد في القبر.

كان الجسد يوضع أولًا على أحد المقاعد الحجرية داخل القبر، ثم يُترك حتى يتحلل. وبعد مرور الوقت، كانت العظام تُجمع وتنقل إلى حفرة أو حجرة مخصصة داخل القبر. وبذلك أصبح القبر يستوعب أجيالًا جديدة من أفراد الأسرة. وتسمي الدراسات هذه العملية بالدفن الثانوي، وهي موثقة بصورة واضحة في قبور يهوذا ذات المقاعد.

وهذا يفسر أيضًا لماذا نجد في بعض القبور بقايا عظام بشرية كثيرة مجتمعة في موضع واحد، بدل أن نجد كل هيكل عظمي في قبر مستقل.

لماذا كانت القبور خارج المدن؟

كانت المقابر في الغالب تقع خارج المناطق السكنية، وخصوصًا على أطراف المدن أو على المنحدرات والوديان القريبة. وتوجد دراسات حديثة تناقش العلاقة بين هذا الفصل المكاني وبين التصورات المتعلقة بنجاسة جثمان الميت في بعض النصوص، لكنها تحذر من تحويل الأمر إلى قاعدة بسيطة؛ فالعلاقة بين

المعتقدات الدينية وموقع القبور أكثر تعقيدًا، وهناك اختلافات زمنية ومكانية.

وهذا يعني أن علينا ألا نقول إن الإسرائيليين كانوا يخافون الموتى؛ فالأدلة نفسها تكشف شيئًا أكثر تعقيدًا كان هناك فصل بين عالم الأحياء ومكان الدفن، وفي الوقت نفسه استمرت علاقة قوية بين الأسرة وموتاها.

القبر العائلي لم يكن مجرد مكان تُترك فيه الجثامين، بل كان يربط الأحياء بأفراد الأسرة الذين سبقوهم. وتربط الدراسات الحديثة بين الدفن الجماعي داخل القبور العائلية وبين تكوين ذاكرة جماعية وهوية الأسرة والمجتمع؛ فوجود الأجداد والأقارب في المكان نفسه جعل القبر نقطة تربط أجيالًا متعددة بالأرض نفسها.

ولهذا تظهر في النصوص القديمة عبارات تشير إلى موت الشخص واجتماعه إلى آبائه، وهي عبارة تنسجم مع فكرة الدفن ضمن تقليد عائلي متوارث. لكن يجب الحذر أيضًا من تحويل العبارة إلى دليل مباشر على عقيدة محددة عن الحياة بعد الموت؛ فالآثار والنصوص لا تعطينا صورة واحدة بسيطة عن معتقدات الإسرائيليين حول العالم الآخر.

الحداد والنواح

كان الموت يستدعي الحزن والنواح والحداد، لكن تفاصيل الممارسات تختلف باختلاف الفترة والمجتمع. وتشير النصوص إلى البكاء والنحيب وإظهار الحزن، بينما تكشف الدراسات أن التعامل مع الموت كان يتضمن طقوسًا ومراحل متعددة.

ومن المهم هنا ألا نخلط بين ما نعرفه عن المجتمعات اليهودية اللاحقة وبين ما يمكن إثباته للعصر الحديدي الذي نتحدث عنه. فبعض الطقوس التي أصبحت معروفة في اليهودية اللاحقة لا نستطيع ببساطة إسقاطها على الإسرائيليين القدماء من دون دليل والأهم أن الدراسات الأثرية الحديثة تنبه إلى أن علاقتهم بالموت لم تكن مجرد خوف من النجاسة. فهناك أدلة ومناقشات حول وجود ممارسات للتذكر والتعامل مع القبور، ولذلك أصبح القبر نفسه جزءًا من العلاقة بين الأحياء وماضي عائلاتهم.

ماذا تخبرنا القبور عن المجتمع؟

القبور لا تخبرنا فقط كيف دفن الإسرائيليون موتاهم، بل تعطينا معلومات عن المجتمع نفسه. فاختلاف القبور في الحجم والمحتويات، واختلاف الأشياء المدفونة مع الموتى، يمكن أن يساعد الباحثين في دراسة الفوارق الاقتصادية والاجتماعية بين الجماعات ومن الأمثلة المهمة مقبرة حورفات تيفيت في وادي يزرعيل، حيث اكتُشف ما لا يقل عن ٢٥ دفنًا يعود إلى العصر

الحديدي الأول، أي إلى القرنين الحادي عشر والعاشر قبل الميلاد تقريبًا. ودرس الباحثون القبور وما وُجد فيها لفهم مستوى الثروة والتنظيم الاجتماعي والاتصالات التجارية لدى مجتمع ريفي في الفترة التي شهدت الانتقال من نظام المدن الكنعانية إلى نشوء كيانات إقليمية مبكرة. وخلصت الدراسة إلى أن المجتمع كان يتميز بتراكم محدود للثروة وبفوارق اجتماعية محدودة نسبيًا.

أما في القدس، فقد كشفت الحفريات عن مقابر من العصر الحديدي الثاني، ومنها مقبرة على المنحدر الغربي لجبل صهيون تضم خمسة قبور منحوتة في الصخر، يعود أحدها إلى القرن السابع قبل الميلاد، واحتوى على دلائل مهمة عن طرق الدفن واللقى الجنائزية في القدس ويهوذا قبل التدمير البابلي في أواخر القرن السادس قبل الميلاد.

الموسيقى والاحتفالات عند العبرانيين والإسرائيليين

لم تكن الموسيقى عند العبرانيين والإسرائيليين مقصورة على العبادة، ولم تكن حكرًا على القصور أو المعابد. فالأدلة النصية والأثرية تشير إلى أنها كانت جزءًا من الحياة الاجتماعية نفسها؛ رافقت الاحتفالات، والأفراح، والانتصارات، والمآتم، والمواكب، والولائم، وبعض الطقوس الدينية. كما تظهر في الأدلة صور لرجال ونساء يعزفون ويرقصون، مما يدل على أن

الموسيقى كانت نشاطًا جماعيًا يشارك فيه أفراد من المجتمع، وليس مجرد أداء يقوم به رجال متخصصون.

من أهم الآلات الوترية الكِنّور، وهو آلة وترية تُترجم أحيانًا إلى قيثارة أو لير، وكانت من أكثر الآلات ظهورًا في المصادر المتعلقة بالموسيقى الإسرائيلية القديمة. وتوجد تمثيلات أثرية للّير في المنطقة، كما عُثر على مشاهد موسيقية على أختام ومنحوتات ولقى أخرى. وتشير الدراسات إلى أن اللير كان من أهم الآلات الوترية في العصر الحديدي.

وكان هناك أيضًا النَّبَل، وهو اسم لآلة وترية أخرى، لكن تفاصيل شكلها وعدد أوتارها وطريقة العزف عليها ليست مؤكدة بصورة كاملة؛ ولهذا لا ينبغي أن نصفها في الكتاب بصورة قطعية وكأننا نملك نموذجًا محفوظًا منها.

أما الآلات الإيقاعية، فكان من أبرزها الطبل ذو الإطار، المعروف في النصوص باسم توف. وكان صغيرًا نسبيًا، ويمكن حمله باليد، وتظهر الأدلة الأثرية تمثيلات لنساء يحملن هذا النوع من الطبول. وتوجد تماثيل ولقى فخارية من مواقع في الساحل والداخل تمثل نساء يعزفن على آلات إيقاعية، مما يدعم فكرة مشاركة النساء في الأداء الموسيقي.

وكانت هناك كذلك الصنوج، وآلات تشبه الخشخيشات، وإن كان تحديد بعض أسماء الآلات العبرية القديمة وما يقابلها بالضبط

في الآلات الحديثة ما يزال موضع نقاش بين الباحثين. ومن الأمثلة المثيرة للاهتمام وجود خشخيشات فخارية تعود إلى العصر الحديدي، عُثر على عدد كبير منها في مواقع المنطقة، وبعضها وُجد في القبور. ولا نستطيع الجزم بأن كل هذه القطع كانت آلات موسيقية؛ إذ يمكن أن تكون بعض الخشخيشات ألعابًا للأطفال، لكن بعضها يُفسَّر في سياق موسيقي أو طقسي.

أما الآلات النفخية، فكانت تشمل الأبواق والقرون والمزامير والأنابيب المزدوجة. وكان للبوق دور خاص في إعلان بعض المناسبات المهمة، بينما استُخدمت الأنابيب والمزامير في الاحتفالات والمواكب وغيرها. ومن اللافت أن آلة الحليل، التي تُترجم عادة إلى المزمار أو الناي، تظهر في المصادر في سياقات متنوعة جدًا، من مواكب الأنبياء إلى تنصيب الملوك والاحتفالات والانتصارات وحتى مرافقة الحزن.

وهذا التنوع في الآلات يخبرنا أن الموسيقى لم تكن تعتمد على صوت واحد أو آلة واحدة؛ فقد كانت الفرق الموسيقية تجمع أحيانًا آلات وترية ونفخية وإيقاعية في الوقت نفسه. ومن أقدم الشواهد المهمة على ذلك حامل فخاري طقسي عُثر عليه في أشدود، ويصور مجموعة موسيقيين يعزفون على أنابيب مزدوجة وطبل ولير وصنوج، ويعود إلى أواخر القرن الحادي عشر أو أوائل القرن العاشر قبل الميلاد تقريبًا.

من كان يعزف؟

لم تكن الموسيقى مهنة مقتصرة على فئة واحدة. فالمصادر تشير إلى وجود موسيقيين في البيئات الملكية والدينية، لكنها تظهر أيضًا الموسيقى بين عامة الناس.

وكانت النساء يشاركن في الغناء والعزف والرقص، خصوصًا في الاحتفالات والانتصارات. وتظهر في الأدلة الفنية نساء يحملن الطبول الإطارية، بينما تذكر النصوص مجموعات من النساء يخرجن بالغناء والرقص في مناسبات عامة.

أما الموسيقى في البيئة الملكية، فكان لها دور مختلف؛ إذ كانت الآلات الوترية تُستخدم في البلاط، كما كان وجود الموسيقيين مرتبطًا بالمناسبات الملكية والاحتفالات. وهذا يعطينا صورة عن الموسيقى باعتبارها وسيلة للترفيه والتعبير الاجتماعي، وليس مجرد نشاط ديني.

الموسيقى في الانتصار والفرح

كان الانتصار العسكري مناسبة طبيعية للموسيقى. فعندما يعود المحاربون منتصرين، كان يمكن أن تستقبلهم النساء بالغناء والرقص والطبول. ولم تكن هذه الموسيقى مجرد ترفيه؛ كانت وسيلة لتحويل الانتصار العسكري إلى احتفال جماعي، حيث يصبح الجيش العائد جزءًا من مشهد عام تشارك فيه النساء

والمجتمع وكانت الموسيقى أيضًا مرتبطة بالاحتفالات العائلية والاجتماعية، مثل الأعراس والولائم، وبالمناسبات المرتبطة بالمواسم الزراعية. وتشير المصادر إلى استخدام الغناء والموسيقى والرقص في احتفالات الحصاد وجمع العنب وغيرها من المناسبات الجماعية.

الموسيقى في الطقوس الدينية

كان للموسيقى مكان مهم أيضًا في الحياة الدينية. فقد استُخدمت الآلات والغناء في بعض الطقوس والمواكب، وارتبطت الموسيقى بالتجمعات الدينية والاحتفالات والأعياد. وتذكر المصادر آلات مثل الأبواق والليل والصنوج والطبول ضمن سياقات دينية مختلفة.

لكن من المهم هنا ألا نخلط بين الممارسة في العصر الحديدي وبين الصورة التفصيلية التي نعرفها عن موسيقى الهيكل في الفترات اللاحقة. فالمصادر المتأخرة تصف نظامًا موسيقيًا أكثر تنظيمًا، ومن الخطأ إسقاط هذا النظام كاملًا على كل مراحل التاريخ الإسرائيلي القديم.

وهذا يجعل الموسيقى نافذة مهمة على المجتمع؛ فالإنسان القديم لم يستخدمها فقط عندما يريد أن يفرح، بل عندما يريد أن يعلن، ويحتفل، ويرثي، ويؤدي طقسًا، ويجمع الناس حول حدث مشترك.

كانت الاحتفالات فرصة لاجتماع الناس حول الطعام والموسيقى والغناء والرقص والطقوس. ويمكن أن ترتبط المناسبة بالزراعة والحصاد، أو بانتصار عسكري، أو بزواج، أو بمناسبة ملكية، أو بطقس ديني.

الطب والعلاج عند العبرانيين والإسرائيليين

لم يكن المرض في المجتمع الإسرائيلي القديم مفهومًا بالطريقة التي نفهم بها المرض اليوم. فقد امتزجت الملاحظة العملية للجسد والجروح والأعراض مع التصورات الدينية عن المرض والطهارة والنجاسة، ومع استخدام مواد نباتية وزيوت وضمادات، وربما ممارسات علاجية أخرى لا نستطيع إعادة بنائها كاملة بسبب محدودية الأدلة.

وهذا لا يعني أن الإنسان القديم كان يرى كل مرض على أنه أمر خارق للطبيعة. فالنصوص القديمة نفسها تصف أعراضًا وحالات جسدية محددة، وتفرق أحيانًا بين حالة وأخرى، بينما تكشف البقايا البشرية عن أمراض وإصابات كان يعاني منها السكان فعلًا.

الجروح والإصابات

كانت الجروح من أكثر الحالات التي يمكن للناس التعامل معها بصورة عملية، سواء نتجت عن العمل الزراعي، أو السقوط، أو

العنف، أو الحروب وتذكر النصوص استخدام الزيت والخمر والضمادات في معالجة الجروح. ومن أشهر الأمثلة وصف تنظيف الجرح وغسله ثم دهنه بالزيت، وهي إشارة مهمة لأنها تكشف أن العلاج لم يكن قائمًا فقط على الدعاء أو الطقوس، بل تضمن أيضًا تنظيف الإصابة ووضع مواد عليها وتغطيتها.

كما أن دراسة الهياكل العظمية تسمح للباحثين باكتشاف كسور وإصابات وأمراض عاشت مع أصحابها مدة طويلة؛ فالتحام العظم، مثلًا، يمكن أن يكشف أن الشخص نجا من إصابة خطيرة وعاش بعدها فترة كافية ليلتئم الكسر. أما بعض الإصابات التي لم تلتئم، فتشير إلى أن الموت ربما حدث قبل اكتمال عملية الشفاء.

الأعشاب والزيوت والمواد العلاجية

كان النبات والزيت جزءًا مهمًا من عالم العلاج القديم في المنطقة. وتظهر في النصوص العبرية إشارات إلى نباتات ومواد ذات استعمالات مختلفة، لكن علينا أن نكون حذرين جدًا في تحويل كل ذكر لنبات إلى وصفة طبية.

فالزيت، مثلًا، لم يكن مجرد مادة غذائية؛ كان يستخدم أيضًا في الدهن والعناية بالجسد وبعض التطبيقات العلاجية. كما عُرفت مواد عطرية وراتنجات ونباتات مختلفة في المنطقة، وبعضها استُخدم في المراهم والعطور والتطهير.

وتكشف الدراسات المقارنة للشرق الأدنى القديم أن استعمال النباتات والأعشاب والمواد المعدنية في العلاج كان واسع الانتشار، وأن بعض هذه المواد كانت تُستخدم في صورة مراهم أو دهانات أو مشروبات. لكن وجود هذا التقليد في بلاد الرافدين أو مصر لا يكفي وحده لإثبات أن الإسرائيليين استخدموا كل مادة بالطريقة نفسها؛ لذلك ينبغي أن نبقى مع الأدلة الخاصة بهم عندما نتحدث عنهم.

المرض والجلد

من أكثر الحالات التي اهتمت بها النصوص الأمراض أو الإصابات الجلدية. وتوجد في سفر اللاويين أحكام طويلة تصف كيفية فحص بعض العلامات التي تظهر على الجلد، وما الذي يترتب عليها من عزل الشخص أو إعلان طهارته أو نجاسته.

ولهذا لا يصح أن نقول إن الإسرائيليين شخّصوا المرض الفلاني بالمعنى الطبي الحديث لمجرد أن النص وصف بقعة أو تغيرًا في الجلد. الأدق أن نقول إن لديهم نظامًا دقيقًا لملاحظة بعض العلامات الجسدية وتحديد ما يترتب عليها دينيًا واجتماعيًا.

الولادة ورعاية المرأة

كانت الولادة من أكثر اللحظات حساسية في حياة الأسرة، وكانت القابلات جزءًا مهمًا من عملية الولادة. وتكشف الدراسات المقارنة للشرق الأدنى القديم أن القابلات كنّ يمتلكن معرفة عملية بالولادة الطبيعية، بينما كانت مشكلات الحمل والولادة موضوعًا منفصلًا في بعض التقاليد الطبية القديمة.

وفي النصوص العبرية توجد أحكام خاصة بالمرأة بعد الولادة، ومنها فترة العزل الطقسي وفترة التطهير التي تختلف بحسب ولادة الذكر أو الأنثى. وهذه الأحكام دينية وطقسية وليست وصفًا لعلاج طبي؛ ولذلك يجب ألا نخلط بينها وبين الطب.

كما أن الولادة نفسها كانت تحمل مخاطر حقيقية في العالم القديم، مثل النزيف والعدوى وتعسر الولادة، حتى لو لم تترك لنا المصادر الإسرائيلية وصفًا طبيًا متكاملًا لكيفية التعامل مع كل حالة.

طب الأسنان والأمراض المزمنة

تكشف دراسة بقايا الهياكل العظمية في مواقع المنطقة عن مشكلات الأسنان، والتهابات، وكسور، وأمراض مفصلية، وإصابات مختلفة. وهذه الأدلة مهمة لأنها تعطينا شيئًا لا تستطيع النصوص وحدها أن تقدمه صورة عن الأمراض التي

أصابت الناس فعلًا لكن العظام تخبرنا عادةً بوجود المرض أو الإصابة وآثارها أكثر مما تخبرنا عن العلاج الذي تلقاه الشخص. فإذا وجد الباحث عظمًا ملتحمًا بعد كسر، يستطيع أن يستنتج أن صاحبه عاش بعد الإصابة مدة كافية للشفاء، لكنه لا يستطيع بالضرورة أن يعرف أي دواء أو طريقة علاج استخدمت وهذا الفرق مهم جدًا الأثر العظمي يمكن أن يثبت الإصابة، لكنه لا يخبرنا تلقائيًا بوصفة الطبيب.

من كان يعالج المرضى؟

وهنا يجب ألا نتصور وجود طبيب بالمعنى الحديث داخل كل قرية. الأدلة المتوفرة لا تسمح لنا بإعادة بناء نظام طبي إسرائيلي منظم بالمستشفيات والمدارس الطبية.

كان العلاج على الأرجح موزعًا بين المعرفة المنزلية، والخبرة العملية، والقابلات، وأشخاص يمتلكون معرفة بالنباتات والمواد العلاجية، وربما ممارسات دينية وشعائرية. وفي الشرق الأدنى القديم عمومًا كان العلاج يجمع أحيانًا بين الملاحظة العملية والوصفات والطقوس؛ لكن مقدار انتشار كل نوع بين الإسرائيليين تحديدًا لا يمكن تحديده بدقة من الأدلة الموجودة.

الطب والدين

وهنا تظهر إحدى أهم سمات عالمهم لم يكن هناك فصل واضح بالمعنى الحديث بين الجسد والدين فالمرض قد يكون له تفسير جسدي، لكن بعض الحالات كانت تحمل أيضًا تبعات دينية تتعلق بالطهارة والنجاسة. والشخص الذي تظهر عليه علامات معينة قد يُعزل عن المجتمع لفترة، ليس لأن العزل علاج للمرض بالضرورة، وإنما لأن حالته كانت تؤثر في وضعه الطقسي.

وهذا يوضح لماذا لا نستطيع أن نضع الطب والدين في صندوقين منفصلين تمامًا عندما ندرس المجتمع الإسرائيلي القديم. كانت صحة الإنسان، وحالته الجسدية، ومكانته داخل الجماعة، ووضعه الطقسي، يمكن أن تتقاطع في الحالة نفسها.

وهذه المصادر مجتمعة تسمح لنا برؤية مجتمع لم يكن عاجزًا أمام المرض، بل امتلك معرفة عملية بالجروح والمواد الطبيعية والولادة وبعض الأعراض والأمراض، وفي الوقت نفسه كان يفسر بعض الحالات ضمن منظومته الدينية الخاصة.

لكن لا ينبغي أن ننسب إليهم طبًا علميًا بالمعنى الحديث، ولا أن ننسب إليهم كل وصفة طبية نعرفها من مصر أو بلاد الرافدين. ما نستطيع قوله بثقة هو أن العلاج في عالمهم كان مزيجًا من الخبرة العملية والعناية بالجسد والتعامل مع المواد الطبيعية،

ضمن مجتمع كانت فيه المعتقدات الدينية جزءًا أساسيًا من تفسير المرض وتنظيم حياة المريض.

الحجامة

ومن الممارسات التي يمكن ربطها بأدلة أثرية مباشرة الحجامة. فقد عُثر في مسعدة على وعاء صغير مجوف يشبه الكأس، وتُفسَّر هذه الأدوات في الدراسات الأثرية بوصفها أدوات استُخدمت في الحجامة، وهي ممارسة تقوم على وضع كأس على الجلد لإحداث تأثير علاجي موضعي وجود هذه القطعة مهم لأنه يقدم لنا دليلًا ماديًا على ممارسة علاجية، بدل أن نعتمد فقط على الإشارات النصية. لكنه لا يسمح لنا بمعرفة عدد الأشخاص الذين استخدموا الحجامة، أو الأمراض التي كانوا يعالجونها بها، أو مدى انتشارها بين السكان. لذلك يمكننا إثبات وجود الممارسة، لكن لا يجوز تحويل قطعة واحدة إلى دليل على أنها كانت العلاج الأساسي في المجتمع.

الصحة والنظافة في القدس

وتعطينا القدس في العصر الحديدي مثالًا بالغ الأهمية على الفرق بين وجود نظام للنظافة وبين القدرة الفعلية على منع الأمراض فقد كشفت دراسة بقايا من مراحض تعود إلى القدس في القرن السابع قبل الميلاد عن وجود طفيليات معوية، من

بينها الديدان السوطية والأسطوانية والشريطية والدبوسية. والأهم أن أحد المواقع كان عقارًا فاخرًا مرتبطًا بأشخاص من طبقة اجتماعية مرتفعة؛ أي أن الإصابة بالطفيليات لم تكن مشكلة تخص الفقراء وحدهم.

والأكثر إثارة أن الباحثين لم يتوقفوا عند الديدان الطفيلية. ففي دراسات لاحقة على رواسب مَرحَضين من القدس نفسها، يعود أحدهما إلى القرن السابع قبل الميلاد والآخر إلى القرن السابع وبداية السادس قبل الميلاد، تمكنوا من الكشف عن آثار طفيل الجيارديا، وهو من مسببات أمراض الإسهال.

وهذا يعطي الباحثين أول دليل ميكروبيولوجي من هذا النوع على وجود عدوى معوية في القدس خلال العصر الحديدي. وتشير الدراسة إلى أن محدودية تقنيات الصرف الصحي، ونقص المياه العذبة في أوقات من السنة، والكثافة السكانية، كلها عوامل كان يمكن أن تساعد على انتشار العدوى وتشير الأدلة المتعلقة بالطب القديم في بلاد الشام إلى استخدام مجموعة من الأدوات التي يمكن أن تدخل في الممارسات العلاجية، مثل المشارط والملاقط والمجسات والملاعق والأدوات الكاشطة، وإن كانت نسبة كبيرة من الأدوات المعدنية القديمة لا تبقى بحالة جيدة بسبب التآكل، ولذلك يجب الحذر من نسبة كل أداة عثر عليها في موقع أثري إلى الطب ما لم توجد قرائن تدعم ذلك.

من رحم الأرض

وهكذا نصل إلى نهاية حكاية من حكايات بلاد الشام، حكاية العبرانيين والإسرائيليين، بكل ما حملته من تحولاتٍ وصراعاتٍ وممالك ومعتقدات، ومن مدنٍ قامت ثم تبدلت، ومن أناسٍ عاشوا فوق هذه الأرض وتركوا خلفهم آثارًا ونصوصًا وذكرياتٍ بقيت تقاوم النسيان.

تحت حجارتها نامت مدن، وفوق ترابها مرت جيوش، وفي أزقتها عاش أناسٌ أحبوا وخافوا وعملوا وصلّوا ودفنوا موتاهم، ثم رحلوا وبقيت آثارهم تنتظر من يعيد قراءة الحكاية.

وهكذا، لا نغلق كتاب العبرانيين والإسرائيليين باعتباره نهاية قصة، بل نضعه على الرف الذي يصل الماضي بما سيأتي بعده؛ فكل حضارة تركت أثرًا، وكل شعب مرّ من هنا أضاف سطرًا إلى ذاكرة هذه الأرض.

ومن رحم الأرض، حين تُطوى صفحة، لا تنتهي الحكاية بل يولد منها فصلٌ جديد.

المراجع الأساسية

Victor H. Matthews, The History of Bronze and Iron Age Israel من أهم المراجع الشاملة؛ يجمع بين التاريخ والآثار والمصادر غير التوراتية، ويتناول نشأة إسرائيل، العصر الحديدي، الملكية، إسرائيل ويهوذا، الحياة اليومية والمجتمع والدين.

OUP Academic

”Omer Sergi, “The Kingdoms of Israel and Judah من The Oxford History of the Ancient Near East المصادر الأثرية والنصوص التوراتية وغير التوراتية معًا.

OUP Academic

James W. Hardin, “Judah During the Iron Age II Period” متخصص في مملكة يهوذا الاستيطان، التنظيم السياسي والاجتماعي، الثقافة المادية والدين، من القرن العاشر حتى بداية السادس قبل الميلاد.

OUP Academic

Tyler Mowry & Deirdre Fulton, “Archaeology and Material Culture of Judah and the Judeans

ca. 1000–586 BCE))" مرجع لآثار يهوذا وثقافتها المادية، ويشرح أيضًا الخلاف بين الرواية التوراتية والأدلة الأثرية.

OUP Academic

Avraham Faust, The Archaeology of Israelite Society in Iron Age II مرجع للمجتمع الإسرائيلي واليهوذي الأسرة، المجتمع، الفوارق الاجتماعية، الفخار، العمارة، والثروة من منظور أثري.

JSTOR

J. David Schloen, "Economy and Society in Iron Age Israel and Judah" للاقتصاد والمجتمع والحياة الاقتصادية في مملكتي إسرائيل ويهوذا.

مكتبة وايلي الإلكترونية

Avraham Faust, "Household Economies in the Kingdoms of Israel and Judah" مرجع عن الأسرة والاقتصاد المنزلي والضرائب والعلاقة بين الأسرة والسلطة الملكية.

University of Haifa

Mitka R. Golub, “Personal Names in Judah in the Iron Age II,” Journal of Semitic Studies 62/1 .(2017), pp. 19–58

OUP Academic

ResearchGate

Rachel Nabulsi, Death and Burial in Iron Age .Israel, Aram, and Phoenicia

“ Archaeological Evidence of Mortuary Remains in Israel and Judah”، مرجع عن النقوش الجنائزية الإسرائيلية، وفصلًا عن نصوص الموت في إسرائيل ويهوذا.

De Gruyter Brill

دراسة ومادة متخصصة عن الآلات الموسيقية في إسرائيل القديمة، تشمل الكنّور، النبل، الأبواق، القرون، الطبول والصنوج وغيرها، وتجمع بين النصوص والتمثيلات الأثرية.

JW.ORG

Nigel Allan, “The Physician in Ancient Israel: His Status and Function,” Medical History 45 (2001), .pp. 377–394

(PubMed Central (PMC

Dafna Langgut, “Mid-7th century BC human parasite remains from Jerusalem,” International .Journal of Paleopathology 36 (2022), pp. 1–6

وهذا مرجع أثري مباشر من القدس في مملكة يهوذا. عُثر في حفرة مرحاض من القرن السابع قبل الميلاد على بيوض أربعة أنواع من الطفيليات المعوية: الدودة السوطية، الشريطية، الأسطوانية والدبوسية.

PubMed

Piers D. Mitchell et al., “Giardia duodenalis and dysentery in Iron Age Jerusalem (7th–6th century BCE),” Parasitology 150/8 (2023), pp. .693–699

PubMed

Aaron A. Burke, “The Archaeology of Ritual and The ”Religion in Ancient Israel and the Levant Oxford Handbook of the Archaeology of Ritual يتناول تطور الدين والطقوس في إسرائيل .and Religion

حتى تدمير الهيكل الأول سنة ٥٨٦ ق.م، ويعتمد على الأدلة الأثرية، بما فيها المعابد والمزارات والتماثيل والأدوات الطقسية.

OUP Academic

André Lemaire, "Schools and Literacy in Ancient Israel and Early Judaism" لمعرفة القراءة، الكتبة، وانتشار الكتابة في إسرائيل القديمة.

مكتبة وايلي الإلكترونية

الكاتبة أماني سليمان

سوريا محافظة الحسكة مدينة القامشلي مواليد ٢/٨/١٩٨٨

درست في كلية العلوم قسم الكيمياء

أول مؤلفاتها كتاب خواطر بعنوان همسات النسمات

الثاني كتاب خواطر بعنوان صدى الأفكار

الثالث رواية بعنوان يضمدها الأمل

الرابع كتاب خواطر بعنوان عندما تتحدث الروح

الخامس رواية بعنوان أرواح تتأرجح على كفوف السحر

السادس كتاب خواطر بعنوان يا حزني السعيد

السابع رواية بعنوان قبل أن يراها

الثامن قصة بعنوان وكانت الصدمة

التاسع رواية بعنوان ترتيب القدر

العاشر مسرحية بعنوان النبوءة

الحادي عشر كتاب خواطر بعنوان كِلانا يبحث عني

الثاني عشر رواية بعنوان حين تكلم الموت

الثالث عشر رواية بعنوان نالت مرادها

الرابع عشر رواية بعنوان سلام فوق رماد الماضي

الخامس عشر خواطر بعنوان انا امرأة لا يعبرها الزمن

السادس عشر خواطر بعنوان على مائدة الوجدان

السابع عشر سكتشات مسرحية بعنوان من رحم المعاناة

الثامن عشر مونولوجات مسرحية بعنوان القوة تنبع من الداخل

التاسع عشر مونولوجات مسرحية بعنوان أنا والحياة

العشرون مونولوجات مسرحية بعنوان علمتني الحياة

الحادي والعشرون رواية بعنوان لم نخرج سالمين

الثاني والعشرون مسرحية بعنوان مقهى النصائح المجّانية

الثالث والعشرون مسرحية غنائية بعنوان ساحة المطر

الرابع والعشرون مسرحية بعنوان مكتب تصليح القدر

الخامس والعشرون مسرحية بعنوان مقهى الرسائل غير المرسلة

السادس و العشرون مسرحية بعنوان شركة ضائعة بين القرارات

السابع و العشرون مسرحية غنائية بعنوان قناديل المنى

الثامن و العشرون خمس سكتشات مسرحية بعنوان مجرات مضيئة

التاسع و العشرون مسرحية بعنوان صندوق الاصوات القديمة

الثلاثون كتاب خواطر بعنوان مسافة نجاة

الحادي و الثلاثون كتاب خواطر بعنوان ألوان قلبي

الثاني و الثلاثون رواية بعنوان على هامش القرار

الثالث و الثلاثون مسرحية بعنوان يوميات عريس مفلس

الرابع و الثلاثون مسرحية بعنوان عريس بالغلط

الخامس و الثلاثون مسرحية مزاد العرسان

السادس و الثلاثون مسرحية يوم بدون تمثيل

السابع و الثلاثون مسرحية غلط بغلط

الثامن و الثلاثون قصة بعنوان أجساد من كلمات

التاسع والثلاثون مسرحية حلم ع السريع

الاربعون مسرحية غنائية للأطفال المدينة التي تضحك

الواحد و الاربعون مسرحية غنائية بعنوان مدينة تزهر حين نحب

الثاني و الاربعون مسرحية بعنوان كل الطرق تؤدي إلي

الثالث و الاربعون مسرحية بعنوان آخر بث

الرابع و الاربعون مسرحية بعنوان محكمة الضمير

الخامس و الاربعون مسرحية بعنوان العريس الضايع

السادس والاربعون مونولوجات مسرحية بعنوان بدون تجميل

السابع و الاربعون مونولوجات مسرحية بعنوان بقايا انسان

الثامن و الاربعون مسرحية بعنوان مدينة الكذب

التاسع و الاربعون مسرحية بعنوان معجب سبع نجوم

الخمسون مسرحية بعنوان الجلسة الأخيرة

الواحد و الخمسون كتاب خواطر بعنوان قيد من حرير

الثاني والخمسون كتاب بعنوان من المجد إلى الطين(١)الحضارة السومرية

الثالث و الخمسون كتاب بعنوان من الطين إلى المجد(٢)الحضارة الأكدية

الرابع و الخمسون كتاب بعنوان من الطين إلى المجد(٣)الحضارة البابلية

الخامس والخمسون كتاب بعنوان من الطين إلى المجد(٤)الحضارة الآشورية

السادس والخمسون كتاب بعنوان وصفات الحب

السابع و الخمسون كتاب بعنوان من رحم الأرض(١)حضارتي إيبلا وماري

الثامن و الخمسون كتاب بعنوان من رحم الأرض(٢)اوغاريت والآراميون

التاسع والخمسون كتاب بعنوان من رحم الأرض(٣)الكنعانيون والفينيقيون

الستون كتاب بعنوان من رحم الأرض(٤) الحوريون، العمونيون، المؤابيون، الأدوميون، الأنباط

الوحد والستون كتاب بعنوان من رحم الأرض(٥)الفلستيون والحثيون

الثاني والستون كتاب بعنوان من رحم الأرض(٦)العبرانيون والأسرائيليون